ابن قتيبة الدنيورى

حياته وأدبه وأشعاره

"رؤية نقدية"

تأليف

الدكتور/ مجدى إبراهيم محمد إبراهيم

الطبعة الثالثة 2015

مزيدة ومنقحة

الكتاب : ابن قتيبة الدنيورى .. حياته وأدبه وأشعاره
النوع : رؤية نقدية
المؤلف : د. مجدى إبراهيم محمد إبراهيم



الناشر : دار نوبل للنشر والتوزيع
4 شارع سيد الخطيب – الثلاثيني
العمرانية الغربية – الجيزة.
ت : 01220320905 – 01159605071
Email: Darnobel@yahoo.com

الطبعة : 2015
رقم الإيداع: 23023 /2015
I . S. B. N
977-200-521-2

- **الغلاف: الفنان : عماد سليم**

المقدمة:

الحمد لله الذى نبه الإنسان إلى ما فيه خيره وحذره مما فيه ضَيْرُه ، وأوضح له الطريق المستقيم لينهجه ، وأراه صرح الكمال ليَلِجَهُ، فيكون فى مأمن من الفساد والخلل ، مجانباً الخطأ والزلل ، فيعمل بالصواب ويتحلى بالفضائل والآداب فينال الثواب ويسعد فى المآب.

أما بعد ....

فإن عالمنا وأديبنا العَلَّامة ابن قتيبة قد أَلَّفَ كُتُبَه لأهل زمانه الذين انصرف أكثرهم عن طلب الأدب وشغلوا بشهوات النفوس وفتنوا بالجدل ، ونظروا فى المنطق ، وراحوا يطعنون فى كتاب الله ، وعلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم جهلاً وبهتاناً ، وأولعوا بالتشديق بألفاظ العلوم المنقولة عن الأعاجم ، وأهملوا النظر فى علوم الفقه والتفسير والفرائض واللغة والنحو.

ومن ثَمَّ تعد كتب ابن قتيبة ذخيرة من ذخائر الأدب والفقه والتفسير واللغة والنحو ، وسجلاً حافلاً للعلوم على مختلف أنواعها فلولاها لضاع الكثير من آثاره العظيمة . ويُعد ابن قتيبة أول من جمع بين مذهبى الكوفة والبصرة فى النحو والصرف ، ولا يقوم بهذا العمل إلا من أتقن المذهبين وعرف الأصول التى تُبنى عليها العلل والمقاييس.

مادة كُتُب ابن قتيبة مادة تراثية فى فترة ازدهار التأليف وعصر الريادة ، فى العصر الذى استوت فيه العلوم على سوقها، وآتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً – على حد قول أستاذنا الدكتور عبده الراجحى – وذهبت

علوم اللغة بالحظ الأوفر ، وذلك أننا لا نعرف لغة ارتبط درسها بدينها كما نعرف ارتباط العربية بالإسلام.

وراح ابن قتيبة فى ثنايا كُتُبه يفسر بعضاً من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التى اختلف فى فهم معانيها ، وأُشكل فهمها ، وبَيَّن أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب على مذهبها فى الإيجاز والإطناب والإخفاء والإظهار ، ثم أَوَّلَ أسماء الله الحسنى وصفاته واشتقاقهما . ولعل اقتباس ابن قتيبة من القرآن الكريم والحديث الشريف يرجع إلى نزعته الدينية .

ولقد اعتنى العرب منذ القدم بالشعر اعتناءً بالغاً، وجعلوه سجلاً لمفاخرهم ومآثرهم ، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – : " أيها الناس عليكم بديوانكم شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم ، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه[1] ومن ثَمَّ استشهد ابن قتيبة فى ثنايا كتبه بالكثير من الأشعار والحكم والأمثال والأقوال المأثورة عن الأعراب الفصحاء.

هذا ، وقد تضمن هذا الكتاب ثلاثة مباحث يسبقها مقدمة.

أما المقدمة فقد تحدثت فيها عن أهمية كتب ابن قتيبة وأسباب تأليفه لها ، وما تضمنته من تفسير لبعض آيات القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربى وكلام العرب الفصحاء.

[1]– تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن : ج1 ص 111.

أما المبحث الأول فقد ترجمت فيه لحياة ابن قتيبة ترجمة مفصلة دقيقة، تحدثت فيها عن اسمه ونسبه، مولده ونشأته،خلقه، شيوخه، ثقافته، مكانته العلمية، اتصاله بالخلفاء، أشعاره، وفاته.

أما المبحث الثانى فقد تحدثت فيه عن آثاره ومؤلفاته من خلال رؤية نقدية فى أدبه، ثم أسلوبه فى كل كتاب أَلَّفَهُ على حده ، ثم هدفه من تأليفه له، وبيان أهميته ، ومدى الاستفادة من مادته العلمية ، إذ إن معظم كتبه تقدم لنا المعايير الأدبية واللغوية والمقاييس الخاصة بدرجتها الإبداعية فى التعبير، تلك التى يمكن استثمارها فى مناحٍ علمية مختلفة، ومن خلال ذلك يمكننا الربط بين التراث والعلوم الحديثة.

أما المبحث الثالث فعنوانه "بين أدب الكاتب وإصلاح المنطق" وفيه تصديت بالحجة والدليل لمن زعم أن كتاب أدب الكاتب خطبة بلا كتاب، وإصلاح المنطق كتاب بلا خطبة، من خلال عقد مقارنة بين هذين الكتابين.

"وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" [1].

أشمون – المنوفية فى الثلاثاء التاسع عشر من صفر سنة 1434هجرية

الموافق الأول من يناير 2013ميلادية

المؤلف

1- سورة هود آية (**88**)

المبحث الأول

ترجمة ابن قتيبة

المبحث الأول

ترجمة ابن قتيبة

أولاً ابن قتيبة " اسمه ونسبه " :

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة [1] الدِّينَوَرِى، البغدادى ، الكوفى ، النحوى ، اللغوى ، كان فاضلاً ثقة ، سكن بغداد ، وأقام بالدنيور مدة قاضيًا ، فنسب إليها وقيل ولد ببغداد ، وقيل بالكوفة ، أما نسبه إلى المروزى فلأن أباه من مرو الروز، وأما نسبه إلى البغدادى، فلأنه ولد فيها على رأى بعضهم أو نزل بها" [2] .

وله ألقاب أخرى ، ففى اللسان : قال الأزهرى ، ذهب الليث إلى أن ابن قتيبة مأخوذ من القَتْب .... وقال الأصمعى: "قَتَبُ البعير مذكر ولا يؤنث، ويقال له القِتْبِ .... وقال ابن سيدة : القِتْب والقَتَب إكاف البعير ، هو الإكاف الصغير الذى على قدر سنام البعير .... والجمع أقتاب ، وهى القَتَبَه بالهاء وتصغيرها قُتَيْبَة ، وقُتَيْبَة اسم رجل منها ، والنسبة إلى قُتَبِى .... وقيل القِتْب ما تَحَوَّى من البطن، يعنى

1- البغدادى ، تاريخ بغداد : ج 10 ص 170، وأبو الطيب اللغوى ، مراتب النحويين: ص 36 وما بعدها ، والسيوطى ، بغية الوعاة فى طبقات اللغوين والنحاة: ج2 ص 63 وما بعدها ، والذهبى ، تذكرة الحفاظ: ج2 ص 187 ، وابن النديم ، الفهرست : ص115 وما بعدها ، والقفطى ، إنباه الرواة على أنباء النحاة : ج2 ص 143 ، والعسقلانى ، لسان الميزان: ج3 ص 357 : 359 ، وابن خلكان ، وفيات الأعيان: ج3 ص 24 وما بعدها .

2- ياقوت الحموى ، معجم البلدان: ج2 ص 545 ، والسمعانى ، الأنساب : ص 443 ، وابن خلكان ، وفيات الأعيان: 44/3.

استدار ، وهو الحوايا ، وجمعها أقتاب ، قال الأصمعى : واحدها قِتْبَة ، قال وبه سمى الرجل قتيبة ، وهو تصغيرها...[1].

ونحن إذا نظرنا إلى اسمى " مسلم ، وقتيبة " رأينا أنهما يدلان بوضوح على أنهما مسلمان مستعربان فى أوائل القرن الثانى الهجرى [2] ويقال : إنَّ هذين الاسمين ، مسلمًا وقتيبة ، يقترنان بالقائد العربى " قتيبة ابن مسلم الباهلى " الذى تولى حكم خراسان بعد يزيد بن المهلب بن أبى صفرة، والذى أغرى الجد الثانى لابن قتيبة أن يسميه بهذا الاسم إعجابا بهذا القائد العربى وتيمنًا به" [3].

وأغفلت المصادر التاريخية وكتب التراجم ذكر والده، ولعل مرجع ذلك يعود إلى أنه لم يكن ذا شأن اجتماعى ، ولم تهتم – كذلك – بالحديث عن جده سوى أنها أشارت إلى أنه من مَرْو العظمى ، أى مرو شاهجان من أعمال " خراسان" [4]

ونحن لا نعرف شيئًا عن طفولته ، إذ لم تتحدث المصادر عنها ولكن بعضها يشير إلى أنه نشأ بعد انتهاء مرحلة الطفولة فى الكوفة [5]

1- ابن منظور الإفريقى ، لسان العرب ، مادة قتب: ج2 ص 153 وما بعدها

2 – د: إسحق موسى الحسينى The life and works of ibn qutaiba" p: 6 " حياة ابن قتيبة وأعماله " ترجمه الى العربية هاشم ياغى.

3 – ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ج3 ص 149.

4- ياقوت الحموى ، معجم البلدان: ج5 ص 112 وما بعدها .

5- ابن الأنبارى ، نزهة الألباء فى طبقات الأدباء: ص 209 ، وابن النديم ، الفهرست : ص 115 ، وابن الأثير ، الكامل فى التاريخ : ج7 ص 438.

ثانيًا مولده ونشأته :

لم يهتم كثير من المؤرخين بسنة ولادته ، لأن الإنسان يولد ولا يتكهن الناس بمصيره فى مستقبل الأيام ، أما الذين اهتموا بمولده فهم: ابن خلكان ، وابن كثير ، والقفطى ، والسيوطى ، ويجمعون على أنه ولد فى مستهل رجب بالكوفة سنة عشرة ومائتين من الهجرة [(1)] بيد أن بعض المحدثين تردد فى قبول هذه السنة " 213 ه " تاريخًا لميلاده لأن ابن خلكان – وهو أول مترجم له – لم يعتمد على رواية سابقة أو مصدر قديم.[(2)]

وقد اختلف المؤرخون فى موطن ولادته ، ذهب فريق منهم إلى أنه ولد بالكوفة كابن الأنبارى ، وابن النديم، وابن الأثير [(3)].

وفريق آخر ذهب إلى أنه ولد فى بغداد كالسمعانى ، والقفطى ، والبغدادى ، والموسوى [(4)] ونحن نرجح أنه ولد فى الكوفة تلك البلدة التى أقام أبوه فيها ، ونشأ هو فيها ، ثم سافر فيما بعد إلى بغداد ، وعرف فيها ، ثم إلى دينَوَر ، ومما يؤيد ذلك أن من ذكر أنه ولد فى الكوفة أسبق من غيره كابن الأنبارى ، وابن الأثير ، وابن النديم ،

1- ابن كثير ، البداية والنهاية : ج11 ص 48 ، والقفطى ، إنباه الرواة : ج2 ص 247 ، والسيوطى ، بغية الوعاة : ج2 ص 64.

2- د: إسحق موسى الحسينى ، ابن قتية حياته وأعماله : ص 10

3- ابن الأنبارى ، نزهة الألباء: ص 209، وابن النديم ، الفهرست: ص 115

4- القفطى ، إنباه الرواة: ج2 ص 143 ، والسمعانى ، الأنساب : ص 443 ، والبغدادى ، تاريخ بغداد : ج10 ص 170.

ولأن بعض الثقات ذكر أنه نزل بغداد وسكن بها ، مثل صاحب مرآة الجنان [1].

ونحن لا نعرف شيئًا عن طفولته ، إذ لم تتحدث المصادر عنها ، ولكن بعد أن شب عن الطوق انتقل إلى بغداد ، وتعلم على يد كوكبة من علماء عصره ، وأنه انكب على دراسة العلوم فى مختلف مجالاتها فهمًا ودرسًا وتحصيلاً ، أخذ علوم النحو واللغة والحديث والفقه والتفسير والأدب والأخبار عن جِلَّة علماء عصره . ثم إنه بعد أن ذاع صيته فى الآفاق واشتهر أمره ، كان ذلك سببًا فى توليته القضاء فى مدنية " دِينَور " [2] لكنه سرعان ما ترك الوظيفة لإحساسه بأن مثل هذه الوظائف تجعل الإنسان لا خلاق له حيث يتصف بالنفاق ، وما كان بالمنافق ، ولم يتقرب من سلطان أو حاكم ، ولعل اعتداده بشخصيته هو الذى دفعه إلى ترك الوظيفة ، فعاد إلى التدريس ، وعكف على التصنيف ، وقرأ كتبه على طلابه حتى وفاته .

ثالثاً خلقه :

كان ابن قتيبة يتحلى بالأخلاق الرفيعة والسجايا الحميدة، ويرى أنهما ضروريان لطالب العلم يجب التحلى بهما قبل تحصيل العلوم ،

1- اليافعى ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان: ج2 ص119 وما بعدها .

2- الدِيْنَور : بلدة من بلاد الجبل قرب " قرمسين " ينسب إليها جماعة كثيرة من أهل الأدب والحديث والتفسير ، منهم ابن قتيبة .

فهو يقول فى مقدمته لأدب الكاتب : " ونحن نستحب لمن قَبِل عنا ، وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه ، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه ، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة ، وصناعته عن شَيْن الكذب " [1] وكان يهجر القول الفاحش ، فيقول : " وأما الشباب وشتم السلف وذكر الأعراض بكبير الفواحش ، فمما لا نرضاه لخساس العبيد وصغار الولدان"[2]

ثم نراه يختم المقدمة بالحث على ترويض النفس على كريم الخصال وتجميلها بالتواضع وحب الحق ، يقول: " فمن تكاملت له هذه الأدوات ، وأمده الله بآداب النفس – من العفاف ، والحلم ، والصبر ، والتواضع للحق ، وسكون الطائر ، وخفض الجناح – فهذا المنتهى فى الفضل ، العالى فى ذرى المجد ، الحاوى قصب السبق ، الفائز بخير الدارين ، إن شاء الله تعالى"[3] وكان التواضع من أبرز خلقه ، فهو لا يدعى لنفسه شيئًا ليس له ، ولا يستعلى على غيره ، ولا يتورع من أن يأخذ العلم حتى عن أخس الناس، يقول : " اعلم أنا لم نزل نتلقط هذه الأحاديث فى الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا فى السن والمعرفة ، وعن جلسائنا وإخواننا ، ومن كتب الأعاجم وسيرهم،

1- مقدمة أدب الكاتب : ص 11.

2- المصدر السابق : ص 12.

3- المصدر السابق : ص 16.

وعمن هو دوننا ، غير مستكفين أن نأخذ عن الحديث سنا لحداثته ، ولا عن الصغير قدرًا لخساسته " [1] .

وصفوة القول أن ابن قتيبة كان مثلاً أعلى للخلق القويم، والتواضع الجم ، والعلم الغزير المتين.

رابعًا شيوخه :

لقد تعلم ابن قتيبة على يد كوكبة من علماء عصره أمثال أبى حاتم السجستانى ، وإسحق بن راهويه ، والزيادى وغيرهم ... وهؤلاء العلماء من أساطين اللغة والنحو والأدب والفقه والتفسير والحديث ، استفاد منهم ابن قتيبة – بلا شك – ولسنا هنا بصدد حصرهم ، ولكنا نشير إلى أكثرهم تأثيرًا فى نفسه وعقله ، وأقواهم فعلاً فى حياته ، أو من كانت ملازمته له أكثر، وفيما يلى قائمة مختصرة بأسماء شيوخه المشهورين :

1- سهل بن محمد ، أبو حاتم السجستانى ت "248" ه أو "255"ه النحوى ، اللغوى ، روى علم سيبويه عن الأخفش وروى عنه أنه كان يكتب عن الأصمعى كل شئ يلفظ به من فوائد العلم [2] وكان أبو حاتم إمامًا فى اللغة والنحو والعروض والقراءات ، صادق الرواية ، اشتغل بالحديث ، وكتب كثيرًا

1- ابن قتيبة ، مقدمة عيون الأخبار .

2- أبو الطيب اللغوى ، مراتب النحويين: ص 130 : 132 ، وابن الأنبارى ، نزهة الألباء : من ص 189 إلى ص 191.

منه عن ثقات [1] ومن كتبه التذكير والتأنيث ، والأضداد ، قرأهما ابن قتيبة.

ويمكننا أن نقول أن ابن قتيبة تأثر به من الناحية اللغوية، فألف كتاب تلقين المتعلم من النحو، وكتاب أدب الكاتب، وغيرهما..........

2- إسحاق بن إبراهيم بن مخلد ، أبو يعقوب التميمى ، الحنظلى ، المروزى ، المعروف بابن راهويه (161 هـ - 238 هـ) قال ابن تيمية : " كان ابن قتيبة يميل إلى مذهب أحمد ، وإسحاق بن راهويه " [2] .

تأثر به ابن قتيبة من ناحية اشتغاله بتفسير القرآن الكريم، فألف كتابيه غريب القرآن وتأويل مشكل القرآن ، وتأثر به كذلك من ناحية اشتغاله بالحديث فألف كتابيه تأويل مختلف الحديث ، وغريب الحديث .

3- عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ ، كان عالمًا بالأدب ، بليغًا، مصنفًا فى فنون متنوعة (ت255هـ أو 254هـ) [3].

تأثر به ابن قتيبة من ناحية استعانته بالفكاهة والمرح كى يبعد عن القارئ الملل والسآمة ، وهذا واضح فى كتابه " عيون الأخبار "

1- ابن النديم ، الفهرست : ص 58 ، والسيوطى ، المزهر فى علوم اللغة وأنواعها: ج2 ص 408.

2- ابن تيمية ، تفسير سورة الإخلاص : ص 86 .

3- ابن الأنبارى ، نزهة الألباء : من ص 192 : ص 195 .

حيث يقول فى مقدمته : " ولم أخله مع ذلك من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة عجيبة وأخرى مضحكة لأروح بذلك عن القارئ من كد الجد وإتعاب الحق"[1].

4- إبراهيم بن سفيان بن سليمان ، أبو إسحاق الزيادى (ت249هـ) كان نحويًا، لغويًا راويًا للأخبار ، قرأ على سيبويه كتابه، وروى عن أبى عبيدة والأصمعى[2]

ويمكننا القول أن ابن قتيبة تأثر بالزيادى ، فأخذ عنه اللغة والنحو ، نظراً لأن الزيادى تتلمذ على يد سيبويه والأصمعى وأبى عبيدة .

5- العباس بن الفرج ، أبو الفضل الرياشى ، اللغوى النحوى ، كان عالمًا باللغة والشعر كثير الرواية عن الأصمعى ، أخذ عن أبى عبيدة ، والمبرد ، وابن دريد، وكان ضليعًا فى النحو واللغة ، قرأ النحو على المازنى، وقرأ عليه المازنى اللغة [3].

6- الكسائى " أبو الحسن على بن حمزة الكسائى (ت 189 هـ) تعلم على يديه قراءة القرآن الكريم ، وذلك لأن الكسائى كان من قراء القرآن الكريم.

1- ابن قتيبة ، مقدمة عيون الأخبار .

2- ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ج1 ص 199 وما بعدها.

3- القفطى ، إنباه الرواة: ج2 ص 161 ، وأبو الطيب اللغوى ، مراتب النحويين : ص 133 وما بعدها .

7- أبـو يوسـف يعقـوب بـن إسـحاق المعـروف بـابن السـكيت " ت 244هـ " كان عالمًا بنحو الكوفيين ، وعلم القرآن الكريم [1] تأثر به ابن قتيبة من ناحية اشتغاله باللغة والنحو.

ونخلص مما سبق أن ابن قتيبـة يعد من أكابر علمـاء اللغـة العربيـة الذين أخذوا علومهم عن جِلَّـة شـيوخ العربيـة ، واللغـة ، وعلـم القرآن الكريم والشعر العربى .

هؤلاء هم أهم شيوخ ابن قتيبة وأشهرهم ، الذين تتلمذ على أيديهم وهناك عدد آخر أقل منهم شهرة لا يتسع المجال لذكرهم .

خامسًا ثقافته :

كـان ابـن قتيبـة يتبـارى فـى التنقيـب عـن اللغـة الفصـحى مـن مظانها ، ولهذا كـان يشد الرحـال أحيانًـا إلـى الباديـة ليلتقـى بـالأعراب الفصحـاء ، ويأخذ عنهم اللغة مشافهة .

وكان لثقافة العصر الذى عاش فيه أثر كبير فيه ، فقد أتقن المعـارف المحيطـة بـه من عربيـة وفارسية ويونانيـة وهنديـة ونبطيـة ، فاكتسب تلك العقلية المنظمة التى جعلت كتبه تتسم بطابع الاتزان ، بالرغم من كثرة المعارف والعلوم التى تحدث عنها ، فهو عندما يتنـاول موضوعًا يجمع كل عناصره فى ترتيب وتنسيق.

1- القفطى ، إنباه الرواة : ج4 ص : 57 .

ويذكر الدكتور الطاهر مكى أنه تزود وهو فى عنفوان شبابه بعلوم الأمم الأخرى وآدابها ، فكانت زاده ، كما قرأ الفلسفة اليونانية، وبخاصة فلسفة أرسطو ، وبالرغم أنه كان من الفرس المَوَالى ، كان دائمًا يدافع عن الإسلام والعربية ، وَتنحَّى العنصرية جانبًا ، ولم يتعصب للفرس ، وكثيرًا ما آلمته هذه النزعات الطائفية التى كانت تسئ للإسلام فجعل فكره سلاحًا للدفاع عنه [1].

يضاف إلى هذا أنه كان عالمًا باللغة والنحو والشعر، والحديث، والتفسير، والقرآن الكريم، متقنًا لكل هذه العلوم ، يقول عنه الحافظ الذهبى: " إنه من أوعية العلم " [2].

ولعل حب العلم كان من أبرز صفات ابن قتيبة ، الذى عشق هذا المضمار منذ نعومة أظفاره ، يقول عن نفسه: " كنت فى عنفوان الشباب ، وتطلب الآداب ، أحب أن أتعلق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم...." [3] .

ولم يقتصر ابن قتيبة فى دراسته على العلوم العربية، وإنما درس العلوم الأجنبية وحَذَقَها ، بخاصة الفارسية ، كان على دراية تامة بها ، ومما يعضد هذا الكلام ويقويه ، أنه عقد فى كتابه " أدب الكاتب " بابًا بعنوان " ما تكلم به العامة من الكلام الأعجمى" [4] سرد

1- د: الطاهر مكى ، دارسة فى مصادر الأدب : ص 178.

2- الذهبى ، تذكرة الحفاظ : ج2 ص 187

3- ابن قتيبة ، تأويل مختلف الحديث : ص 74.

4- أدب الكاتب : من ص 383 إلى ص 391

فيه العديد من الكلمات الأعجمية، وبَيَّنَ أصلها ، وهو كذلك لم يقف بالعلم عند حد معين ، فقد عرف شيئًا عن علم الرى ، ووسائله كالقناطر والجسور والدوالى والنواعير" [1]. ولم يكن ابن قتيبة بعيدًا عن التيارات الفكرية العصرية، ولذلك كان كتابه الموسوم "الرد على المشبهة".

سادسًا مكانته العلمية :

لا شك أن تنوع المعارف والعلوم عند ابن قتيبة كانت من أقوى الأسباب التى أهلته لكى يحتل مكانة علمية رفيعة ، ودليلنا على عظم قَدْره ، وعلو كعبه فى اللغة والنحو ، أنه ألف كتابى "أدب الكاتب" و "تلقين المتعلم من النحو " ، وغيرهما ....

ويعد ابن قتيبة أول من جمع بين مذهبى الكوفة والبصرة فى النحو والصرف ، ولا يقوم بهذا العمل إلا من أتقن المذهبين، وعرف الأصول التى تبنى عليها العلل والمقاييس عند المدرستين..." إلا أن ابن قتيبة خلط عليه بحكايات عن الكوفيين، لم يكن يأخذها عن ثقات ، وكان يتسرع فى أشياء لا يقوم بها نحو تعرضه لتأليفه كتابًا فى النحو ...[2] ولكننا نرى – كما يقول ابن تيمية نقلاً عن صاحب التحديث بمناقب أهل الحديث – أنه أحد الأعلام والأئمة والعلماء الفضلاء ، وأجودهم تصنيفًا وأحسنهم ترصيفًا ... وكان أهل المغرب

1- مقدمة أدب الكاتب : ص 10

2- مراتب النحويين : ص 137

يعظمونه ، ويقولون من استجاز الوقيعة فى ابن قتيبة يتهم بالزندقة ، ويقولون كل بيت ليس فيه شئ من تصنيفه لا خير فيه ، قلت ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، فإنه خطيب السنة، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة "[1] وقال عنه القفطى : " وكان صادقًا فيما يرويه ، عالمًا باللغة والنحو، وغريب القرآن ومعانيه ، والشعر والفقه ، كثير التصنيف والتأليف، وكتبه بالجبل مرغوب فيها "[2] وقال عنه ابن الأنبارى : " كان فاضلاً فى اللغة والنحو والشعر متقنًا فى العلوم [3] وقال عنه مسلم بن قاسم : " كان ابن قتيبة لغويًا ، كثير التأليف ، عالمًا بالتصنيف ، صدوقًا من أهل السنة " [4] وقال عنه ابن خلكان : " كان فاضلاً ثقة ، وتصانيفه كلها مفيدة [5] وقال الخطيب البغدادى عنه : "كان ثقة دَيِّنًا ، فاضلاً ، وهو صاحب التصانيف المشهورة ، والكتب المعروفة " [6].

ولقد شارك ابن قتيبة فى محنة خلق القرآن، وكان له رأيه الخاص، كما شارك فى فكرة المشبهة والمجسمة، وكان له رأبه، كما شارك فى الخلاف النحوى بين مدرستى الكوفة والبصرة، وجعل بينهما

1- تفسير سورة الإخلاص : ص 130.
2- القنطى ، إنباه الرواة: ج2 ص 147
3- ابن قتيبة ، تأويل مختلف الحديث : ص 74.
4- العسقلانى ، لسان الميزان : ج3 ص 358
5- وفيات الأعيان : ج3 ص 42.
6- تاريخ بغداد : ج10 ص 170

مدرسة ثالثة فى بغداد كان هو راعيها، كما شارك فى الرد على الشعوبية. كل ذلك أدى إلى استهدافه ومحاولة إثارة الفتن حوله.

كما كان ابن قتيبة ذا صفات حميدة ، فقد كان كريمًا بعلمه ، سمحًا فى اقرائه الطلاب كتبه ، ولم يؤثر عنه أنه حبسها عن طلابها حتى يقبض أجره ، كما أثر عن قرينه أبى العباس المبرد " ت 285 هـ[1] .

ونخلص مما سبق أن ابن قتيبة كان إمامًا من أئمة اللغة وشيخًا عظيمًا من شيوخ العربية .

سابعاً اتصاله بالخلفاء :

لم يكن ابن قتيبة له اتصال وثيق بالخلفاء ، أو المناصب المهمة فى الدولة ، اللهم إلا توليته القضاء فى مدينة دِينَوَر فترة، وكان هذا العمل من أهم الأسباب التى جعلت له علاقة بوزير الخليفة المتوكل والمعتمد (عبيد الله ابن يحيي بن خاقان) الذى تولى الوزارة من سنة 236 هـ إلى سنة 256 هـ ، والذى توفى سنة 263 هـ ، ومما يؤيد هذه العلاقة ، أنه أَلَّفَ كتاب "أدب الكتاب" وأهداه لهذا الوزير ، وأحسن صلته ، واصطنعه ، وقدمه للمتوكل ، وأحسن الثناء عليه عنده .... [2].

1- مراتب النحويين : ص 137

2- مقدمة أدب الكاتب هامش ص5 ، وما قبلها

ومعنى هذا أن العلاقة بينهما لم تكن إلا علاقة علمية، لأنه أهداه كتابه، فأثنى عليه ، وأشار إلى أنه صَنَّفه استجابة لطلبه ، كما أنه لم يكن من خاصة الوزير والمقربين إليه ، لأنه لم يشر إلى ذلك فى كتبه الأخرى .

والذى نرجحه أنه ترك وظيفة القضاء فى مدينة دِيْنَوَر ، لإحساسه بأن هذه الوظيفة تجعل الإنسان لاخلاق له حيث يتصف بالنفاق ، ولعل اعتداده بشخصيته هو الذى دفعه إلى ترك الوظيفة ، فعاد إلى التدريس ، وعكف على التصنيف ، وقرأ كتبه على طلابه حتى وفاته .

ثامنًا أشعاره :

لم يعرف عن ابن قتيبة أنه نظم شعرًا، لكننا رأينا أنه ارتجل بيتا واحدًا فى كتابه عيون الأخبار ، يقول [1]:

لك الحق أنْ تَعْتِبْ عَلَيَّ لأننى ∴ جَفَوْتُ وإما تَغْتَفِر فلك الفضل

لقد أورد ابن قتيبة هذا البيت فى عيون الأخبار لكاتب، اعتذر له، قائلاً : وحضرنى هذا البيت على ارتجال والذى نرجحه أن ابن قتيبة هو القائل ، ويبدو أنه يعاتب صديقًا له ، كان قد ابتعد عنه فترة من الزمن .

1- ابن قتيبة ، عيون الأخبار ج2 ص 102.

هذا وقد ذكر ابن قاضى شهبة فى طبقاته ، أن ابن قتيبة نظم ثلاثة أبيات فى الغزل هى:[1]

يا من مودته بالعَيَا ∴ ن فإنْ غاب كانت مع الغائب

يا من رضيِ لى من وده ∴ بفعل امرئ قاطع قاضب

بأية جُرْمٍ قد أقْصَيْتَنى ∴ وألقيت حبلى على غاربى

ونحن نرى أن هذه الأبيات ، لا تصدر على لسانه ، إذ إنه كان مثلاً أعلى للأخلاق الرفيعة ، والسجايا الحميدة ، والعفاف ، والحلم ، والصبر ، والتواضع للحق.

تاسعًا وفاته :

اهتم المؤرخون والمترجمون الذين تعرضوا لابن قتيبة بذكر سنة وفاته – هذا شأنهم مع أساطين العلماء ، لا يهتمون بمولدهم ، لأنهم لا يتوقعون ما سيكون من أمرهم ، ولكن بعد أن حظى بالشهرة ، اهتم الناس به، ورَصَدُوا نشاطه فى خدمة العلم ، وَأَرَّخُوا لحياته ووفاته .

وحين نبحث عن تاريخ وفاته نجد أن الخلط والاضطراب يسودان المصادر القديمة فى تحديد وفاته ، قال بعضها إنه توفى سنة

1- ابن قاضى شهبة ، طبقات النحاة : ج2 ص 52 .

"270 هـ" وقال آخرون إنه توفى سنة "276هـ" وهناك قلة قليلة من العلماء ذكروا أنه توفى سنة " 271هـ" [1]

والذى نرجحه أنه ظل يقرأ كتبه ببغداد على تلاميذه، إلى أن فاضت رَوْحُه إلى بارئها أول ليلة من رجب سنة ست وسبعين ومائتين [2] ومما يؤيد هذا أن ابن الأنبارى نقل عن ابن المنادى ، عن أبى القاسم إبراهيم بن محمد ابن بشير الضائع – أحد تلاميذ ابن قتيبة – أن وفاته كانت فى أول ليلة من رجب سنة "276 هـ" وينقل الخطيب البغدادى رواية ابن الأنبارى السابقة ، ورواية أخرى تذكر أنه توفى سنة " 270 هـ" بلا ترجيح بينهما ، بيد أن ابن خلكان ذكر الروايتين السابقتين ، وأضاف إليهما رواية أخرى هى سنة " 271هـ" ثم يرجح سنة " 276هـ" [3].

وسنحاول مناقشة هذه الأقوال جميعها ، كى نقف من بينها على الرأى الراجح.

1- رحل القاسم بن أصبع البيانى – أحد تلاميذ ابن قتيبة فى بغداد – سنة " 247 هـ : 340 هـ " إلى بلدة تسمى بيانة – وهى بلدة أندلسية بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلاً – إلى بلاد الشرق سنة "

1- الفهرست : ص 115 ، وتاريخ بغداد : ج10 ص 171 ، ونزهة الألباء : ص 210 ، وإنباه الرواة : ج2 ص 142 ، وبغية الوعاة : ج2 ص 64

2- هذا هو القول الراجح الذى أورده كثير من المؤرخين .

3 – إنباه الرواة : 143/2 ، الفهرست : ص 115 ، تاريخ بغداد: ج10 ص 171، نزهة الألباء : ص 210، وابن الأثير ، الكامل: ج7 ص 438

274 هـ " ليأخذ العلم عن جماعة من العلماء ، كان من بينهم ابن قتيبة.

2- ذكر إبراهيم بن محمد بشير الصائغ – وهو من تلاميذ ابن قتيبة – أن وفاته كانت سنة 276 هـ [1] .

3- ذكر الزبيدى أنه توفى سنة 276هـ ، وهو من أسبق المترجمين له [2] .

ونستنتج مما سبق أن سنتى " 274 هـ ، 275 هـ" لم تردا قط فى سنوات وفاته عند أحد من المؤرخين ، وبناء على هذا فالمرجح أنه توفى سنة 276هـ .

أما الأسباب التى أدت إلى وفاته ، فقد ذكرها ابن المنادى فى روايتين:

الأولــى : روى عن أبى القاسم إبراهيم بن محمد بن أيوب الصائغ ، وهى " أن ابن قتيبة أكل هريسة ، فأصاب حرارة ، ثم صاح صيحة شديدة ، ثم أغمى عليه إلى وقت صلاة الظهر ، ثم اضطرب ساعة ، ثم هدأ ، فمازال يتشهد إلى وقت السحر ، ثم مات" [3].

1- د. الحسينى ، حياة ابن قتيبة وأعماله : ص 14.

2- المصدر السابق : ص 14 ، ود: عبد الحميد سند الجندى ، ابن قيبة العالم الناقد الأديب : ص100.

3- تاريخ بغداد : ج10 ص 170 ، الفهرست : ص 86 ، نزهة الألباء : ص210، ولسان الميزان : ج3 ص 358.

الثانية : قال محمد بن عبد الواحد بن محمد بن العباس ، قال : قُرِئَ على ابن المنادى وأنا أسمع ، قال: ومات عبد الله بن مسلم بن قتيبة صاحب التصانيف فجأة ، صاح صيحة سمعت من بعد ، ثم أغمى عليه ومات [1].

من خلال هاتين الروايتين ، تبين أنه مات فجأة ، حيث صاح صيحة شديدة ، وذلك بعد أن أكل هريسة .

وقد اعتقدنا أن الهريسة هى الأكلة المعروفة لدينا فمات لفسادها ، ولكن أخبرنا أستاذنا الدكتور رمضان عبد التواب أن الهريسة فى البلاد العربية – يقصد الجمهورية الليبية – تعنى الشطة الحريفة . ومما يؤيد هذا أنه عرض على أستاذنا فى إحدى رحلاته من أحد تلاميذه سطيرة من الهريسة معتقدًا نفس ما اعتقدناه ، من أنها تعنى أحد أنواع الحلوى فإذا بها مملوءة بالشطة.

1- تاريخ بغداد : ج10 ص 170.

المبحث الثانى

آثاره ومؤلفاته (رؤية نقدية)

المبحث الثانى

آثاره ومؤلفاته (رؤية نقدية)

لقد ترك لنا ابن قتيبة ثروة كبيرة من المؤلفات فى اللغة والنحو والحديث والتفسير والفقه والشعر ، كلها تهدف إلى التعليم والإفادة ، وكلها مؤلفات نفيسة أثرى بها المكتبة العربية ، قال ابن تيمية نقلاً عن صاحب التحديث بمناقب الحديث : إن لابن قتيبة زهاء ثلاثمائة مصنف [1] وقال آخرون : "وله مصنفات كثيرة جدًا رأيت فهرسها ، ونسيت عددها ، وأظنها تزيد على ستين مصنفًا فى أنواع العلوم ، وقيل إنها ثلاثة وثلاثون ، ونشك فى الرقم الأول "ثلاثمائة" ويبدو أن هؤلاء خلطوا بين عناوين الكتب والأبواب التى تشملها بعض الكتب [2]

ويكفى أن نشير إلى هذه المؤلفات ، موردين نبذة يسيرة عن كل مؤلف ألفه ابن قتيبة بقدر ما يتسع له المقام وبحسب قيمته العلمية .

1- أدب الكاتب :

حين نذكر ابن قتيبة فإن الذهن ينصرف إلى كتابه "أدب الكاتب " والسر فى ذلك يرجع إلى ما نبه إليه صاحب كشف الظنون

1- ابن تيمية ، تفسير سورة الإخلاص : ص 130

2- د: الظاهر مكى ، دراسة فى مصادر الأدب : ص 178 وما بعدها .

قائلاً : إنه كتاب جزيل النفع، قد حوى من كل شئ أحسنه"[1] وقد عده ابن خلكان فى مقدمته من دواويين الأدب الأربعة، يقول : " وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواويين وهى " أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأربعة فَتَبَعٌ لها وفروع عنها " [2]

هذا وقد جاء الكتاب مبينًا على مقدمة وأربعة أبواب، سمى ابن قتيبة كل باب منها كتابًا .

المقدمــة: وتحدث فيها عن كُتَّاب الدواويين وغيرهم، ممن يظنون بأنفسهم العلم ، وهم جهلاء ، ومن ثَمَّ انبرى ابن قتيبة يدافع عن اللغة الفصحى ، تلك التى اضطرب حبل نظامها، واختل توازنها ، وتسرب إليها اللحن والخطأ والانحراف لا على ألسنة العامة فحسب ، بل على ألسنة الخاصة كذلك ، أمثال المثقفين وكتاب الدواويين والولاة والوزراء وغيرهم...

وراح ابن قتيبة فى المقدمة كذلك يسخط على هؤلاء الكُتَّاب، مُنَبِّها على الصفات التى يجب توافرها فيهم ، وهى أن يكونوا مُلمين باللغة والنحو والأدب والفقه وعلوم القرآن والحديث ، وأن يتجنبوا

1- حاجى خليفة ، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون : ج1 ص 73 .

2- مقدمة شرح أدب الكاتب : ص5 ، والاقتضاب : ج1 ص18 وما بعدها ، وابن خلدون ، المقدمة : ص522 .

الألفاظ الفاحشة فى كلامهم ، ويَدَعُوا التقعير والتقعيب ، ويبتعدون عن الألفاظ الوعرة التى تحتاج إلى جهد ومشقة حين فهم معانيها ، وعليهم أن يعرفوا شيئًا عن علم المساحة والموازين والمقاييس ودوران الشمس ومطالع النجوم ، وأن يكون كلامهم مطابقًا لمقتضى الحال ، فلا يخاطبوا الخلفاء بكلام السوقة ، وعليهم التحلى بالأخلاق الرفيعة والصفات الحميدة .. إلى آخره [1] .

وابن قتيبة فى كل هذا يستدل على صحة ما يقول بالقرآن الكريم تارة، وبالحديث الشريف تارة ثانية ، وبما أُثِر عن حكماء الفرس وملوكهم تارة أخرى ، مما يدل على أنه واسع العلم والمعرفة والثقافة .

ويبدو أن مهمة هؤلاء الكُتَّاب فى تلك الآونة ، هى جودة الخط وإتقانه، دون اهتمامهم بمعانى الألفاظ والتراكيب ، يقول ابن قتيبة ساخرًا منهم لعجزهم الشنيع باللغة الفصحى : " فأبعد غايات كَاتِبُنَا فى كتابته أن يكون حَسَنَ الخط ، قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبيات فى مدح قَيْنَة [2] أو وصف كأس .... ثم يعترض على كتاب الله بالطعن، وهو لا يعرف معناه، وعلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب ، وهو لا يدرى من نقله [3].

1- انظر مقدمة أدب الكاتب : من ص1 إلى ص16.

2- القَيْنة : الأمَة ، مغنية كانت أو غير مغنية .

3- أدب الكاتب : ص 2 وما بعدها

مما حدا بابن قتيبة إلى محاولة إصلاحهم ، فوضع هذا الكتاب ذخيرة من اللغة ، ومسائل من النحو ، وزادًا من المعرفة، يُقَوِّم به كاتب الديوان لسانه حين يتحدث ، وقلمه حين يكتب وينشئ.

– **أما الكتاب الأول** فهو كتاب المعرفة ، حاول فيه ابن قتيبة أن يثقف القارئ والكاتب اللذين يجهلان دلالة الألفاظ ، ومعرفة الفروق الدقيقة بين مدلولاتها ، ولذلك نراه ينبه على الخطأ والغلط كثيرًا ، وهذا واضح فى باب معرفة ما يضعه الناس فى غير موضعه " (1) ثم سرعان ما نجده يرتب المادة اللغوية بحسب الموضوعات والمعانى ، كما فى " باب معرفة ما فى السماء والنجوم والأزمان والرياح ، وكما فى باب الخيل ، وباب الطير وأبواب الفروق إلى آخره ...، وهو بذلك يكون قد كَوَّن معجمًا لغويًا صغيرًا بحسب الموضوعات أو المعانى ، وهذا يتمثل فى تصنيفه لهذه الموضوعات ، وحصره للألفاظ ، ومعالجته لمعانى كلمات بعض الحقول الدلالية فى العربية ، ولعله يهدف من وراء كل ذلك إلى التعرف على معناها المعجمى lexical meaning بإيضاحها وشرحه وتفسيره.

– **أما الكتاب الثانى** فهو كتاب تقويم اليد ، أدرج تحته دروسًا عن قواعد الرسم الإملائى كحذف الألف والياء من الأسماء، ودخول ألف الاستفهام على ألف الوصل فى المقصور والممدود ، كما تحدث عن أحوال الهمز ، من تحقيق وحذف وتسهيل إلى آخره...

1– أدب الكاتب : من ص 17 إلى ص36

– **أما الكتاب الثالث** فهو كتاب " تقويم اللسان " : وهذا الكتاب خاص ببعض أخطاء العامة فى الفصحى وفيه أدرج ابن قتيبة العديد من المفردات التى تتقارب فى اللفظ وفى المعنى ، فربما وضع الناس أحدهما فى موضع الآخر، وما جاء ساكنا والعامة تحركه إلى آخره ...

– **أما الكتاب الرابع** فهو " كتاب الأبنية " : وهو خاص بالصرف العربى ، وتطبيق واسع على أبنية الأفعال والأسماء من صيغ الاشتقاق بأنواعه المتعددة ....

أسلوب ابن قتيبة فى أدب الكاتب :

يتميز أسلوب ابن قتيبة فى هذا الكتاب القيم بالتفقه فى اللغة ، وإلمامه لألفاظها ، واستنباطه لأسرارها ، كان شديد العناية بالمعنى ، يتخير الألفاظ للمعانى ، لا المعانى للألفاظ ، وكان يراعى فى كلامه أن يكون مطابقًا لمقتضى الحال ، يميل إلى تأدية المعنى من أقرب طريق ، وينفر من استخدام الألفاظ الوحشية الغربية ، التى تحتاج إلى جهد ومشقة حين التعرف على معانيها ، ولذلك نراه يقول: "ونستحب له (أى للكاتب) أن يدع فى كلامه التقعير والتقعيب[1] .

1– مقدمة أدب الكاتب: ص12 ، والتقعير: الانتهاء إلى قعر الشئ ، هذا أصله ، وتقول " قَعَرَ الرجل " إذا روى فنظر فيما يغمض من الرأى حتى يستخرجه ، كأنه إذا تكلم بكلام غريب عويص احتيج معانيه ، كما يحتاج إلى إخراج ما فى القعر ، والتقعيب مثل التقعير ، ومعناه التعميق.

وفى ثنايا الكتاب نجد أسلوبه مزداناً بالاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ولعل هذا يرجع إلى نزعته الدينية ، يضاف إلى هذا استشهاده بالشعر والحكم والأمثال والأقوال المأثورة عن الأعراب الفصحاء.

لكن ، ما أهمية دراسة أدب الكاتب؟

إن أهمية هذه الدراسة – من وجهة نظرنا – تتصل بقضايا التغير اللغوى وما تحتويه مما قد يسمى باللحن قديمًا أو حديثًا، ولذلك حاول علماء العربية القدماء – وفى مقدمتهم ابن قتيبة – أن يحافظوا عليها من ألوان اللحن الصوتى والصرفى ، وكانت لهم فى ذلك جهودهم المعروفة، بيد أن مواقفهم تختلف بين متشدد ومتساهل، كما أن الظواهر التى تناولوها قد تحتمل من التفسيرات التطورية أو اللهجية ما لم يفطن إليها بعض القدماء ، وهو ما تحاول هذه الدراسة أن تستجمع خيوطه ومتناثراته كى نصل فيه إلى الرأى الأرجح.

الهدف من تأليف ابن قتيبة لأدب الكاتب:

لم يكن هدف ابن قتيبة من تأليف كتابه إلا تقويم اعوجاج الألسن ، وتعويد الناشئة على النطق السليم المبرأ من العيب بعد ذيوع اللحن وانتشاره على ألسنة العامة والخاصة مما دفعه لتأليف كتابه هذا لتأديب كُتَّاب الدواوين والولاة والمثقفين عامة ، الذين ظنوا بأنفسهم العلم ، وهم جهلاء ، وتعليم الخاملين المتطاولين الذين غفلوا عن

حقيقة حالهم فأهملوا النظر فى اللغة، وانصرفوا إلى العلوم الحديثة والمترجمة ، فضعفت صلتهم بالعربية الفصحى، وجهلوا الكثير من مسائلها ، فنشروا على الناس جهلهم .

وبناء على هذا فإن ابن قتيبة استهدف تعليم الجهال ممن يدعون العلم، وكشف المتطاولين على القيم الدينية ، وهم أجهل الناس بمكانتها ، ومن ثَمَّ أَلَّفَ لهم " أدب الكاتب" جمع فيه بين تقويم اللسان وتقويم اليد " أى رسم قواعد الكلمات ".

ونظرًا لشهرة هذا الكتاب، وجودة مادته العلمية فقد طبع فى القاهرة أكثر من خمس مرات ، صدرت الطبعة الأولى منه سنة 1300 هـ ، وأول من قام بنشره المستشرق الألمانى اسبرول sproull فى ليبسك سنة 1848م، ثم أعاد نشره المستشرق الألمانى الدكتور ماكس جرونرت Max Grunert فى مطبعة بريل ، فى ليدن سنة 1900 ميلادية ، وقد عنى بوضع فهارس له.

وقد نال هذا الكتاب حظًا كبيرًا من ثناء العلماء، فقد تناولوه شرحًا واختصارًا وإضافة وتعليقًا ونقدًا وتهذيبًا، وذلك نظرًا لجودة مادته العلمية، وذلك على الوجه الآتى :

1- شرح خطبته عبد الرحمن بن إسحاق أبو القاسم الزجاجى "ت337هـ"[1].

1- حاجى خليفة ، كشف الظنون : ج1 ص48 ، وإنباه الرواة : ج2 س160 ، وكارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى : ج2 ص 176

2- شرح أبياته أحمد بن محمد البشتى الخارزنجى "ت 348هـ"[1].
3- شرحه إسحاق بن إبراهيم الفارابى " ت 350 هـ" [2].
4- شرحه أبو على القالى البغدادى " ت 356هـ " [3].
5- شرح مقدمته ابن خير الإشبيلى ، وسماها " شرح صدر أدب الكاتب" [4].
6- شرح خطبته عبد الباقى بن محمد " ت 392هـ" [5].
7- شرحه أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى (444هـ - 521هـ) وسماه "الاقتضاب فى شرح أدب الكُتَّاب"[6] وقد جعله فى ثلاثة أجزاء، قصر الأول منه على شرح الخطبة، والثانى على التنبيه على الأغلاط، والثالث على شرح الأبيات[7].
8- شرحه موهوب بن أحمد الجواليقى " ت 540 هـ" [8]

2- تأويل مشكل القرآن الكريم:

ويتضح من اسمه أن ابن قتيبة أوضح كل ما أُوشْكل فهمه من آى الذكر الحكيم ، وبَيَّنَ أن القرآن نزل بلغة العرب على مذهبها فى الإيجاز والإطناب ، والإخفاء والإظهار ، وقد ضَمَّنَه أبوابًا عديدة ،

1- كشف الظنون : ج1 ص48 ، بغية الوعاة : ج1 ص 602.
2- معجم الأباء : ج4 ص208 ، وبغية الوعاة : ج1 ص 388.
3- بغية الوعاة : ج1 ص 438 ، ومعجم الأدباء : ج6 ص 63 ، وكشف الظنون : ج1 ص48
4- معجم الأدباء : ج18 ص 275
5- ابن خيرى الإشبيلى ، فهرست ما وراء عن شيوخه : ص344 .
6- تاريخ الأدب العربى : ج2 ص 226
7- انظر - مثلاً - طبعة الهيئة العامة للكتاب ، طبعة 1982.
8- انظر: طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ، بتحقيق مصطفى صادق الرافعى.

منها باب للكناية والتعريض ، وآخر للاستعارة ، فالمقلوب ، وباب آخر بعنوان " باب تأويل الحروف التى ادَّعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم " فتحدث عن الحروف المقطعة ، واختلاف المفسرين فيها ، وقد أورد لكل آية فيها شَبْهَة ، أو عبارة فيها خفاء ، والأمثال والنظائر من مأثور القول عند البلغاء والفصحاء ، وعقد أيضًا بابًا بعنوان " باب اللفظ الواحد للمعانى المختلفة " تحدث فيه عن الألفاظ التى جاءت فى القرآن متحدة المبانى ، مختلفة المعانى، وهذا الباب – فى رأينا – له قيمة عظيمة فى اللغة ، لأنه أرجع المعانى المختلفة للفظ الواحد إلى أصل واحد نشأت فيه وتفرعت عنه.

وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة الأستاذ السيد أحمد صقر سنة 1373هـ، ثم أعيدت طبعته سنة 1393 هـ = 1973م بدار التراث.

3- غريب القرآن :

وهو مكمل لكتاب " تأويل مشكل القرآن " يتضح ذلك من قوله " وأفردت للغريب كتابًا كى لا يطول هذا الكتاب [1] وقد ذكر منهجه متمثلاً فى تقديمه للكتاب وتبويبه على ثلاثة أقسام:

الأول : تأويل أسماء الله الحسنى ، وصفاته ، واشتقاقهما .

والثانى : لتفسير المفردات التى تكررت كثيرًا فى القرآن الكريم .

والثالث : لتفسير الغريب.

1- ابن قاضى شهبة ، طبقات النحاة : ج2 ص 52 .

ونشره لأول مرة الأستاذ السيد أحمد صقر سنة " 1387 هـ = 1958م" دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، ثم أعيد طبعه مصورًا سنة " 1398 هـ = 1978م" دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ، ثم أعيد طبعه مصورًا سنة 1398 هـ = 1978" بدار الكتب العربية ببيروت.

هذا وقد جمع الإمام محمد بن أحمد بن مطرف الكنانى الأندلسى – أحد قراء الأندلس – المتوفى سنة (454هـ) مادة كتابى "تأويل مشكل القرآن ، وتفسير غريب القرآن " فى كتاب واحد ، سماه " القُرْطين " جعله فى جزأين.

4- الشعر والشعراء :

ذكره معظم من ترجموا لابن قتيبة باسم "طبقات الشعراء" [1] ولعل السبب فى تسميته بذلك ، أنه يشبه مادة كتاب " طبقات الشعراء"لابن سلام ت "232 هـ" وقد ألفه فى أخريات أيامه ، وجعله فى جزأين ، تحدث فى الجزء الأول عن مفهوم الشعر ، لفظه ومعناه ، حسنه وقبيحه ، والإقواء ، والإكفاء، والعيب فى الإعراب، وأوائل الشعراء ، يقول: "تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب":[2]

1- الفهرست : ص116 ، وفيات الأعيان : ج 3 ص 42 ، وبغية الوعاة : ج2 ص 64 ، والداوودى ، طبقات المفسرين : ج2 ص 246.

2- انظر أنواع هذه الأضرب فى كتاب الشعر والشعراء : ج1 من ص 64 إلى ص 71.

1- ضربٌ منه حَسُنَ لفظه وجاد معناه كقول القائل: [1]

فى كَفَّه خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبقٌ ∴ مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فى عِرْنِينِه شممُ [2]
يَغْضِى حَيَاءً ويُغْضى مِنْ مَهَابَتِهِ ∴ فَما يُكلَّمُ إلاَّ حِينَ يَبْتَسِمُ

لم يُقل فى الهيبة شئٌ أَحسنُ منه .وكقولِ : أَوْسِ بن حَجَر [3] وذلك أن معانيه مبتكرة وجيدة، ويتسم بتركيز الأسلوب، وبالوحدة الفنية الموسيقية.

لم يبندأ أحد مرثية بأحسن من هذا. ومثل هذا الشعر رقيق اللفظ، سهل القياد، عميق المعنى، لا يعمد إلى التعقيد، ولا يحمل القارئ شطط الغوص وراء معنى خبئ فى ملمات الغيب، وهذا الشعر يتوغل فى أعماق القارئ حيث يملأ النفوس حزنًا وتفيض الدموع أسفًا وحسرة.

1- هذان البيتان للحزين الكنانى من أبيات يمدح بها عبد الله بن عبد الملك بن مروان . وزعم أبو تمام فى الحماسة أنهما له فى مدح زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب ج 4 ص 167 :169 من شرح التبريزى. وزعم غيره أنهما من أبيات للفرزدق فى مدح زين العابدين . قال الأصبهانى فى الأغانى : " وهو غلط ممن رواه فيها ، وليس هذان البيتان مما يمدح به مثل على بن الحسين عليهما السلام ، وله من الفضل المتعالم ما ليس لأحد " . وقال أيضًا: "والصحيح أنها للحزين فى عبد الله بن عبد الملك ، وقد غلط ابن عائشة فى إدخاله البيتين فى تلك الأبيات ، وأبيات الحزين مؤتلفة منتظمة المعانى، متشابهة تبنئ عن نفسها " ثم ساق أبيات الحزين. انظر الأغانى: ج14 ، ص 74: 77 ، والشعر والشعراء : ج1 ص65.

2- الخَيْزُران : كل عود لين أملس.
- العِرْنِين : ما صَلُبَ من عَظْم النف حتى يكون الشَّمَمُ ، وعرانين القوم : سادتهم واشرافهم .
- نَمِضىَ الرجلُ : أطبق جَفْنيه على حَدْقَيْه حياءً .

3- هذا البيت صور مرثية جيدة نادرة ، وقد ورد فى الشعر والشعراء: ج1 ص 65، والأغانى : ج10 ، ص7 .

هذا أبدع بيت قاله العرب لأنه جزء من كياننا الإنسانى حيث وضع أبو ذؤيب الكلمة فى موضعها المناسب، فعبرت عن معناها تعبيرًا صادقًا لأن الصدق فى الشعر من أهم عوامل درجات التفوق، على أنه يجب أن يكمون للشعر عمل إيجابى ونزعة هادفة فى المجتمع، وأن يتابع الأحداث ويؤثر فيها، ويدفع إلى البناء والتجديد النفسى.

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلِى جَزَعَا ∴ إنَّ الَّذِى تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

لم يبتدئْ أَحدٌ مرثيةً بأَحسنَ من هذا .

وكقول أَبى ذُؤَيْبٍ: (1)

والنَّفْسُ راغِبَةٌ إذَا رَغَّبْتَها ∴ وإِذَا تُرَد إِلىَ قَلِيلٍ تَقْنَعُ

قال ابن قتيبة : حدثنى الرِّياشِىُّ عن الأَصْمَعِىّ قال : هذا أَبدعُ بيت قاله العربُ .

2- وضرب منه حَسُنَ لفظُه وحَلاَ ، فإذا أَنت فَتَّشْتَه لم تَجِدْ هناك فائدة فى المعنى ، كقولِ القائلِ : (2)

ولَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنى كُلَّ حَاجةٍ ∴ ومَسَّحَ بِالأَرْكانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وشُدَّت على حُدْبِ المَهَارِى رحَالنَا ∴ ولا يَنْظُرُ الْغَادِى الذى هُوَ رَائحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ∴ وسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِىِّ الأَبَاطِحُ(1)

1- ورد هذا البيت فى الشعر والشعراء : ج1 ص 65.

2- هذه الأبيات وردت فى الخصائص: ج1 ص225، ومعجم البلدان: ج8 ص 159

هذه الأَلفاظُ كمَا تَرَى ، أَحسنُ شيءٍ مَخارجَ ومَطَالِعَ ومَقَاطِعَ ، وهى مثال للشعر الرائق لفظه ، البسيط معناه . وإن نظرتَ إلى ما تحتها من المعنى وجدتَه : ولما قَطَعنا "أى قضينا " أَيَّام مِنًى ، واستلمنا الأَركانَ ، وعالينا إبلنا الأَنضاءَ[2] ، ومضَى الناسُ لا ينتظر الغادِى الرائحَ ، ابتدأنا فى الحديثِ ، وسارت الدواب فى الأماكن المتسعة.

3 – ضربٌ منه جاد معناه وقصُرَت أَلفاظُه عنه ، كقول لَبِيدِ ابن رَبيعَةَ : [3]

ما عَاتَبَ المَرْءَ الكَرِيمَ كَنَفْسِهِ ∴ والمَرْءُ يُصْلِحُهُ الجَلِيسُ الصَّالِحُ

هذا وإن كان جيّدَ المعنَى والسبكِ فإنَّهُ قليلُ الماءِ والرَّونق .

4 – ضربٍ منه تأخر معناه وتأخر لفظه كقول الأعشى:[4]

إنَّ مَحَلاً وإنَّ مُرْتَحَلاً ∴ وإنَّ فى السَّفْرِ ما مَضَى مَهَلا

اسْتَأْثَرَ الله بِالوَفَاءِ وَبِالـ ∴ ـحَمْدِ وَوَلَّى المَلَامَةَ الْرَّجُلا

1– المَهَارِى : الإبل النجيبة التى تسبق الخيل ، وهى منسوبة إلى قبيلة مَهْرة بن حَيْدان.
– المطى : الدواب التى تركب.
– الأباطح : جمع الأبطح وهو المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى ، ومنه أبطح مكة.
2– الأنضاء : جمع نضو ، وهو الدابة التى أهزلتها الأسفار وأذهبت لحمها .
3– ورد هذا البيت فى الشعر والشعراء: ج1 ص 68 .
4– انظر هذه الأبيات فى الشعر والشعراء: ج1 ص 69 .

والأَرْضُ حَمَّالَــةٌ لمَــا حَمَّــلَ ٱللَّـــ ∴ ـــهُ وَمَــا إنْ تَــرُدُّ مــا فَعَــلاَ

يَوْمًــا تَرَاهَــا كَشِــبْهِ أَرْدِيَــةِ الــ ∴ ــعَصْب ويَوْمــاً أَدِيمُهَــا نَغَــلا

وهذا الشعر منحول ، ولا أعلم فيه شيئا مستحسنا إلا قوله : (1)

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ المَطِيَّ ولاَ ∴ يَشْرَبُ كَأْسًا بِكَفِّ مَنْ بَخِلاَ

يريد أن كل شارب يشرب بكفه ، وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من بخل . وهو معنى لطيف.

أما الجزء الثانى فجعله للحديث عن الشعر والتأريخ لشعرهم ، وذكر أنسابهم وقصائدهم ، وما اتصل بهم من روايات ، والمتأمل فى هذا القسم يلحظ أن اختيار ابن قتيبة لبعض شعر الشاعر اختيار عالم بالشعر عَرَّاف به، فقيه فيه ، فهو يختار فيحسن الاختيار ، وينقد فيحسن النقد، ويجيد، ويوازن بين الشعراء فيقيم الوزن بالقسط .

ومقدمة الكتاب من أعظم ما خلَّفه ابن قتيبة من الآثار الأدبية، لأنه وضع فيها مذهبًا جديدًا فى تقويم الشعر والشعراء.... وأن هذا المذهب يدل على أنه رجل جرئ ، مجدد ، ثائر على التقاليد النقدية العتيقة ، فقد نبذ التقليد جنبًا، وَقَوَّم الشعر من حيث هو شعر ، بدون نظر إلى قائله، وهذا رأى خليق بالاعتبار (2)

1- المصدر السابق نفسه : الصفحة نفسها .

2- ابن قتيبة ، العالم الناقد الأديب : ص 147

وقد طبع لأول مرة فى ليدن سنة 1875 ميلادية ، ثم طبع فيها مرة ثانية سنة 1902 ميلادية ، ثم طبع فى مصر سنة 1904 ميلادية مع بعض تعليقات من قبل الشيخ بدر الدين النعسانى الحلبى، ثم صدر بتحقيق العلامة شيخنا أحمد محمد شاكر سنة 1950 ميلادية ، ثم صدر بعد ذلك فى جزأين كبيرين سنتى "1966 و 1967" الميلاديتين عن دار المعارف ، بمزيد من العناية والإتقان.

ولقد اهتم المستشرق الفرنسى " ديموبين Demombin " بمقدمة الكتاب ، فنشرها فى كتاب مستقل، ثم علق عليها بإسهاب باللغة الفرنسية .

5- عيون الأخبار :

ويعد هذا الكتاب – فى رأينا – من أشهر كتبه ، بعد كتاب " أدب الكاتب " فقد قَدَّمَهُ للعامة والخاصة ، يقول فى مقدمته للكتاب : ولم أر صوابا أن يكون كتابى هذا وقفا على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ولا على خواص الناس دون عوامهم ولا على ملوكهم دون سُوقتهم ، فوفّيت كل فريق منهم قِسْمه ووفَّرت عليه سهمه وأودعته طُرَفًا من محاسن كلام الزهاد فى الدنيا وذكر فجائعها والزوالِ والانتقال وما يتلاقَوْن به إذا اجتمعوا ويتكاتبون به إذا افترقوا[1] ، إلا عَمن تراه لك حجة ولا تقدح فى صدرك منه الشكوكُ، وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدَثين، قسّمت هذه الأخبار

1- انظر مقدمة كتاب الشعر والشعراء

والأشعار وصنفتها وجدتها على اختلاف فنونها وكثرة عدد أبوابها تجتمع فى عشرة كتب بعد الذى رأيت إفراده عنها وهو أربعة كتب متميز ، كل كتاب منها منفرد على حدته ، كتاب الشراب ، وكتاب المعارف ، وكتاب الشعر ، وكتاب تأويل الرؤيا إذا كان متخيَّر اللفظ لطيف المعنى لم يُزْرِ به عندنا، تأخر قائله كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدّمه ، فكل قديم حديث فى عصره وكل شرف فأوّلَهُ خارجيُّهُ ، ومن شأن عوام الناس رفع المعدوم ووضع الموجود ورفض المبذول وحب الممنوع وتعظيم المتقدّم وغُفران زلته وبخس المتأخر والتجنِّى عليه ، والعاقل منهم ينظر بعين العدل لا بعين الرضا ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم(1).

فهذا الكتاب يحوى الكثير من الروايات والأخبار ، كما يقدم الأدب الرفيع متمثلاً فى روائع الشعر وبليغ النثر بما يمكن أن نقول إنه صورة حية للحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية والثقافية آنذاك، وهو يعكس ثقافة العصر الذى عاش فيه ابن قتيبة عن طريق تأثر الثقافة العربية بالفارسية وغيرها من الثقافات .

وقد قسمه ابن قتيبة إلى عشرة أبواب ، كل باب ، سماه كتابًا ، وهذه الكتب هى : "كتاب السلطان ، كتاب الحرب ، كتاب السؤدد ، كتاب الطبائع ، كتاب العلم ، كتاب الزهد ، كتاب الإخوان، كتاب الحوائج ، كتاب الطعام ، كتاب النساء".

1- انظر مقدمة كتاب الشعر والشعراء

الكتاب الأول : " كتاب السلطان"

وفيه الأخبار عن محل السلطان واختلاف أحواله وعن سيرته وعما يحتاج صاحبه إلى استعماله من الآداب فى صحبته وفى مخاطبته ومعاملته ومشاورته له وما يجب على السلطان أن يأخذ به فى اختيار عُمّالِه وقُضَاتِه وحُجَّابه وكُتّابه ، وعلى الحكام أن يمتثلوه فى أحكامهم وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

ومن أمثلة الأشعار المشاكلة لذلك قول الرياشى فى المشاورة بالرأى:

وعـــاجز الـــرأى مضـــياع لفرصـــته

حتـــى إذا فـــات أمـــر عاتـــب القـــدرا

فلابد من الأخذ بمبدأ المشورة امتثالاً لقوله تعالى (وَشَاوِرهُمً فِي ألأَمّرِ)[1]. لقد أدرك الشاعر أن الشعر جزء من كياننا الإنسانى، وهو من لا تستغنى عنه الحياة.

أما كتمان السر فقد الرسول صلى الله عليه وسلم : "استعينوا على الحوائج بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود"

نقول

إذا مــا ضـــاق صـــدرك مـــن حـــديث

1- سورة آل عمران : آية 159.

فأَفْشَتْهُ الرجالُ فمن تلوم

إذا عاتبت من أفشى حديثى

وسرى عنده فأنا الظلوم

وإنى حتى أسأم حَمْل سرى

وقد ضمَّمَنته صدرى سؤوم

وحين نمعن النظر فى هذه الأبيات نلحظ أنه لابد من كتمان السر وعدم الإباحة به، ولولا وجود بعض الهدامين له، لما فقد بعض الشعراء ثقتهم بالقيم الدينية التى دأبت الإنسانية على تركيزها فى الشعر. يجب أن نكون مدركين طريقة التفكير فى هذه الأمور بأنه لا مسئ من أعتب، والاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية.

وقال عمور بن العاص: "ما استودعت رجلا سرًا فأفشاه فلمتَه، لأنى كنت أضيق صدرًا حينما استودعته، وعليه نقول:

وإذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها

فسرك عند الناس أفشى وأضيع

أما الحبس فإن الشكوى لله.

إلى الله أشكو إنه موضع الشكوى

وفى يده كشف المصيبة والبلوى

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها

فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى

إنك إذا كتبت بيتًا واحدًا من الشعر الجيد يجب أن تكون قد شاهدت مدنًا وأشخاصًا، يجب أن نؤتى القدرة على استيعاب التفكير فى ضروب كائنة فى مناطق مجهولة، يجب أن نلتفت إلى الوراء نحو أيام الطفولة.

وهذا النوع من الشعر الدينى إذا تأملته تجد نفسك خاشعًا، فالشعر الدينى عند الشعراء المجددين هو أكبر دعامة لخلودهم، وصفوة إبداعهم فى هذا الجانب، يجب أن يكون موضوع الحفاوة والانتفاع به حتى يعم السلام والطمأنينة فى قلوب البشر.

أما العفو فقالوا: "إن عاقبت جازيت، وإن عفوت أحسنت، والعفو أقرب للتقوى، نقول:

ألا إن خيـــر العفـــو عفـــو معجـــل
وشـــر العقـــاب مـــا يجـــاز بـــه القـــدر

وأجمل ما فى هذا البيت هو ذلك العفو الجارف، وتلك العاطفة الجياشة النابعة من خلجات النفس، حيث تلحظ العفو عند المقدرة.

يجب أن يكون للشعر دور إيجابى ونزعة هادفة فى المجتمع وأن يتابع الأحداث ويؤثر فيها، ويدفع بها إلى البناء والتجديد النفسى.

الكتاب الثانى " كتاب الحرب"

وفيه الأخبار عن آداب الحرب ومكايدها ووصايا الجيوش وعن العُدد والسلاح والكُرّاع، وما جاء فى السفر والمسير والطِّيَرة والفَأل ، وما يؤمر به الغزاة والمسافرون ، وأخبار الجبناء والشجعاء

وحِيَل الحرب وغيرها وشئ من أخبار الدولة والطالبيِّن وأخبار الأمصار وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

من ذلك حض الناس يوم اللقاء، فقد قال أبو بكر الصديق لخالد ابن الوليد حين وجهه: "احرص على الموت توهب لك الحياة"

قالت الخنساء:

نهين النفوس وهون النفو ∴ س يوم الكريهة أرقى لها

والبطولة تكمل إذا جمع صاحبها بين الشجاعة والجرأة والخلق النبيل وقت القتال: وقال قطرى بن الفجاءة:

وقولى كلما جشأت وجاست
من الأبطال ويحك لا تراعى
فإنك لو سألت حياة يوم
سوى الأجل الذى لك لم تطاعى

فى هذين البيتين فاضت مشاعر الشاعر بكل هذا الشعر الرائع. فانفعل وتأثر فأنتجت قريحته هذين البيتين وغيرهما كثير.

أما الطيرة والفأل فقد قال الأصمعى: هرب بعض البصريين من الطاعون، فركب حمارًا له، ومضى بأهله نحو سفوان، فسمع حاديًا يحدو خلفه وهو يقول:

لن يسبق الله على حمار

ولا علـــــى ذى ميعـــــة مطَّـــــار

أو يـــأتى الحتـــف علـــى مقـــدار

قــــد يصــــبح الله أمــــام الســـارى

أما عن أخبار الجبناء فنقول:

للحـــرب قـــوم أضـــل الله ســـعيهم

إذا دعــــتهم إلــــى حوبائهــــا وثبــــوا

ولســـت مـــنهم ولا أبغـــى فعـــالهم

لا القتـــل يعجبنـــى مـــنهم ولا الســـلب

فى هذين البيتين نجد بعض القوم قد أضل الله سعيهم لأنهم يحاربون من أجل هدف تافه وهو السلب والسرقة، فينبغى علينا البعد عن أفعالهم الرذيلة والمنكرة.

الكاتب الثالث " كتاب السُّؤْدُد"

وفيه الأخبار عن مَخَايل السؤدُد فى الحَدَث وأسبابه فى الكبير ، وعن المهمة السامية والخِطَارِ بالنفس لطلب المعالى واختلاف الإرادات والأمانى والتواضع والكبر والعجب والحياء والعقل والحلم والغضب والعز والهيبة والذل والمروءة واللباس والطيب والمجالسة والمحادثة والبناء والمُزَاح وترك التصنُّع والتوسط فى الأشياء وما يكره من الغلق والتقصير واليسار والفقر والتجارة والبيع والشراء والمُدَايَنة والشريف من أفعال الأشراف والسادة وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

من ذلك أنه قيل لعرابة الأوسى: بم سددت قومك؟ قال بأربع: أنخدع لهم من مالى، وأذل لهم فى عرضى، ولا أحقر صغيرهم، ولا أحسد رفيعهم، قال الشاعر المقنع الكندى:

ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
وليس إلى نصرى سراعًا وإن هم
دعونى على نصر أتيتهم شدا
وإذا أكلوا لحمى وفرت لحومهم
وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
يُعَيِّرنى بالدين قوم وإنما
ديونى فى أشياء تكسبهم حمدا

حين ندقق النظر فى هذه الأبيات نلحظ أن الشاعر يعالج مخايل السوء وأسبابه، فهو يؤكد على أنه لا يحمل الحقد لقومه وحينما يدعوه إلى نصرهم فيسرع إليهم.

وأنهم حينما يذمونه ويسبونه، فإنه يرد هذه الإساءة بالإحسان، ونزعته الدينية تجرى فى عروقه، يعيرونه بها قومه، رغم أنه يكسب لهم الحمد والثناء.

ومن هنا نعرف أن الشاعر يتصف بالشهامة والكرم ونصرة قومه وقت الشدة، وهو مؤمن عميق الإيمان بأن لديه رسالة يدافع عنها على نحو ما سبق.

أما الهمة والخطار بالنفس فنقول:

الـذل فـى دعـة النفـوس ولا أرى
عـز المعيشـة دون أن يُشـقى لهـا

معنى هذا أننا لكى نعيش أعزاء فلابد من الجد والاجتهاد، لأن من يعش مسرورًا فليقنع، ومن أراد الذكر فليجتهد، قيل للعتابى: فلان بعيد الهمة، قال: إذن لا يكون له غاية إلا الجنة.

وإنـى لأسـتحى مـن الله أن أرى
أطـوف بـأرض لـيس فيهـا بعيـر
وأن أسـأل المـرء اللئـيم بعيـره
وبُعـران ربـى فـى الـبلاد كثيـر

وفى الحديث الشريف عن ابن مسعود قال: كان آخر ما حُفظ من كلام النبوة: "إذا لم تستحى فاصنع ما شئت"

وقال سعيد بن المسيب سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: "قلة الحياء كفره"

أما عن الحلم والغضب فقد قال بعض المحدثين:

وإن الله ذو حلـم ولكـن
بقـدر الحلـم يُفتقـد الحلـيم
لقـد ولَّـتْ بـدولتك الليـالى
وأنـت معلـق فيهـا نعـيم
وزلـت لـم يعـش فيهـا كـريم

ولا اســــتغنى بثروتهـــا عـــديم

فبُعــدًا لا انقضـــاء لـــه وســحقًا

فَغَيَّـــر مســـارك الحـــدث العظـــيم

لا يكفى أن نكون مدركين طريقة التفكير فى كل هذه الأمور، بل يجب أن نتريث ونتمهل وألا نثور ونغضب فكم من شاعر جيد الصياغة، غير قادر على التفكير فيما يشعر به، عديم الإيمان بحقيقته، وذلك هو المقلد الذى يخرج شعرًا لا يهز وجدان القارئ.

الكتاب الرابع " كتاب الطبائع والأخلاق"

وفيه الأخبار عن تشابه الناس فى الطبائع وذمِّهم ، وعن مساوئ الأخلاق من الحسد والغِيبة والسِّعاية والكذب والقَحَة وسوء الخلق وسوء الجوار والسَّباب والبخل والحمق وتوارد الحَمْقى وطبائع الحيوان من الناس والجن والأنعام والسباع والطير والحشرات وصغار الحيوان والنبات وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

وقد قيل: "لا يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا تساووا هلكوا"

قال أحد الشعراء:

النـــاس أَسْـــوَأ وشـــتَّى فـــى الشـــيم

وكلهـــــم يجمعهـــــم بيـــــت الآدم

أما الحسد فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة لا يسلم منهن أحد: الطيرة والظن والحسد، قيل فما المخرج منهن يا

رسول الله؟ قال: إذا تطيرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تَبْغِ"

قال الطائى:

وإذا أراد الله نشـــــر فضـــــيلة
طُويــت أتـــاح لهــا لســـان حســـود
لـولا اشـتمال النـار فيمـا جـاورت
مـا كـان يًُعرف طيب عرف العود
لـولا التخـوف للعواقـب لـم تـزل
للحاســد النعمـــى علـــى المحســـود

إن الأمر هنا ليس أمر أبيات فى قصيدة، ولا هو أمر القصيدة نفسها، وإنما هو أمر ارتعاشة الشاعر فى اللحظة الحاسمة، لحظة نورانية الخالق عندما يقف محلقًا فى سمائه الشعرية مبدلاً حاجته الراهنة بحقائق جوهرية.

وقيل للحسن البصرى أيحسد المؤمن أخاه؟ قال: لا أبًا لك، أنسيت إخوة يوسف، وكان يقال: أردت أن تسلم من الحاسد، فَعَم عليه أمورك، ويقال: إذا أراد الله أن يسلط على عبده عدوًا لا يرحمه سلط عليه حاسدًا. قال الشاعر:

حَسَدُوا الفتـى إذا لـم ينـالوا سـعيه
فـــالقوم عـــداء ولهـــم خصـــوم
كضـرائر الحسـناء قليلـة لوجهها
حســـدًا وظلمًـــا إنـــه لـــذميم

قال الأحنف: "لا وفاء لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا مروءة لبخيل، ولا سؤدد لسيء الخلق، وقال معاوية: "كل الناس أستطيع أرضيه إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها.

نقول:

كل العداوة قد ترجى إماتتها
إلا عداوة من عاداك من حسد
إن تحسدونى فإنى لا ألومكم
قبلى من الناس أهل الفضل قد حُسِدوا

فالحسد أول ذنب عصى الله به فى الأرض، يعنى حسد ابن آدم أخاه حين قتله.

وقال الأصمعى: "رأيت أعرابيًا قد أتت له مائة وعشرون سنة، فقلت: ما أطول عمرك! قال: تركت الحسد فبقيت.

أما الغيبة والعيوب، فقال أبو الدرداء: "ليس من يوم أصبح فيه لا يرمينى الناس بداهية إلا كان نعمة من الله علىَّ".

قال حسان:

وإن امرءًا أمسى وأصبح سالمًا
من الناس إلا ماجنى لسعيد

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا عاب أحدكم أخاه فليستغفر الله"

وقال أحد الشعراء:

لا تلتمس من مساوئ الناس ما ستروا

فيكشف الله سترًا من مساويك

أما السعاية فقد قال الأعشى:

ومن يطع الواشين لا يتركوا له

صديقًا وإن كان الحبيب المقرب

أما الكذب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يصلح الكذب إلا فى ثلاثة مواضع: الحرب فإنها خدعة، والرجل يصلح بين اثنين، والرجل يرضى امرأته"

وقال الأحنف: اثنان لا يجتمعان أبدًا : "الكذب والمروءة"

وقال أيضًا لابنه: "اتخذ الكذب كنزًا، أى لا تخرجه"

قال الشاعر:

حسب الكذوب من البلية

بعض ما يحكى عليه

مهما سمعت بكذبة

من غيره نُسِبت إليه

أما سوء الخلق وسوء الجوار والشر فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن سوء الخلق والبخل" وقيل: يا رسول الله ما الشؤم؟ قال: "سوء الخلق"

قال الشاعر:

قومــا إذا أكلــوا أخفــوا كلامهــم
واســتوثقوا مــن رتــاج البــاب والــدار
لا يقيس الجار منهم فضل نـارهم
ولا تكــف يـــدٍ مـــن حرمـــة الجـــار

أما الحمق فقد قال عمر بن الخطاب: "إياك ومؤاخاة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك"

ومن حمقى العرب كلاب بن صعصعة، خرج إخوته يشترون خيلا، وخرج معهم كلاب، فجاء بعِجْل يقوده، فقال له إخوته: ما هذا؟ فقال: فرسًا اشتريته، فقالوا: يا مائق هذه بقرة، أما ترى قرنيها!! فرجع إلى بيته فقطع قرنيها، فأولادُهُ يدعون "بنى فارس البقرة"

ولقد أحدث رجل من الحمقى ذات ليلة على باب رجل، فلما خرج الرجل زلق، فوقع على ذراعيه فانكسرت، فاجتمع الجيران وجعلوا يختصمون ويوقعون الظنون، وهو ناحية يسمع كلامهم، فلما أكثروا قال:

رأيـــت الحـــرب يجنيهـــا رجـــال
ويَصَـــــلى حرهـــــا قـــــوم بـــــراء

فأخذوه وقالوا: أنت صاحبنا.

ولما حضر الحطيئة الوفاة، قال: "احملونى على حمار، فإنه لم يمت عليه كريم قط، فلعلى أن أبقى، ثم تمثل:

لكـــل جديـــد لـــذة غيـــر أننـــى

رأيـــت جديـــد المـــوت غيـــر لذيـــذ

وقيل لـه: أوصـه، قال: بـم أوصـى؟ مـالى للذكور دون الإنـاث، فقالوا: إن الله يأمر بهذا، لكنى آمر به، ثم قال: ويل للشعر من راوية الشعر، فقيل لـه: أوص يـا أبـا مليكـة للمسـاكين بشـئ، قـال أوصـيهم بالمسألة ما عاشوا فإنها تجارة لن تبور. قيل أعتق عبدك يسارًا. قال: اشهدوا أنـه عبد ما بقى، قيل: فلان اليتيم أوص لـه. قال أوصـى أن تأكلوا ماله و أمه. قالوا: ليس إلا هذا!! قال: احملونى على الحمار.

الكتاب الخامس " كتاب العلم "

وفيه الأخبار عن العلم والعلماء والمتعلمين وعن الكتب والحفظ والقرآن والأثَر والكـلام فـى الـدين ووصـايا المُؤدِّبين والبيـان والبلاغـة والتلطف فى الجواب والكلام وحسن التعريض والخُطب والمقامات وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

يقال: "لا يزال المرء عالمًا ما طلب العلم، فإن ظن أن قد علم فقد جهل"

قـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم: "مـن تعلـم العلـم لأربعـة دخـل النـار، ليبـاهى بـه العلمـاء، أو يمـارى بـه السـفهاء، أو يميـل بـه وجوه الناس، أو يأخذ به من الأمراء.

قال أحد الشعراء:

يُعَـد رفيـع القـوم مـن كـان عالمًـا

وإن لـم يكـن علـى قومـه بحسـيب

وإن حـلَّ أرضًـا عـاش فيهـا بعلمـه

ومـــا عـــالم فـــى بلـــدة بغريـــب

ويقال: "أول العلم الصمت، والثانى الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العقل، والخامس نشره، ويقال : إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول.

وفـى حكمـة لقمـان، إن العـالم الحكيم يـدعو النـاس إلـى علمـه بالصـمت والوقـار، وإن العـالم الأخـرق يطـرد النـاس مـن علمـه بالـهذر والإكثار.

قال الشاعر:

شـفاء العمـى طـول السـؤال وإنمـا

تمـام العمـى طـول السـكوت علـى الجهـل

أما الإعراب واللحن فقد قال ابن سيرين: ما رأيت على رجل أحسن من فصاحة، ولا على امرأة أحسن من شحم.

قيل لأعرابى: أتهمز إسرائيل؟ قال إنى إذًا لرجل سوء، قيل لـه: أتجر فلسطين؟ قال : إنى إذًا لقوى، وقيل لآخر: أتهمز الفارة؟ فقال : الهمزة تهمزها.

وقال مسلمة بن عبد الملك: "اللحن فى الكلام أقبح من الجدرى فى الوجه"

دخـل أعرابـى السـوق فسـمعهم يلحنـون، فقـال سـبحان الله، يلحنون ويربحون، ونحن لا نلحن ولا نربح!!

وقال شاعر فى جارية له:

أول ما أسمع منها فى السحر
تذكيرها الأنثى وتأنيث المذكر

أما البيان فقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحرًا، فاطلبوا الصلاة وأقصروا فى الخطب" وقال العباس: يا رسول الله فيم الجمال؟ قال فى اللسان.

وقال الإمام على – كرم الله وجهه : "تكلموا تعرفوا، فإن المرء مخبوء تحت لسانه"

ومعنى هذا الكلام أن عقل الإنسان مخبوء تحت لسانه، فلا شئ أولى بطول حسن من لسان يقصر عن الصواب، ويسرع إلى الجواب، ولا حاجة بالعاقل إلى التكلم إلا لعلم ينشره، أو غنم يكسبه، وهذا ما عبر عنه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين قال: "رحم الله من قال خيرًا فغنم أو سكت فسلم"

ويقال عقل المرء مدفون تحت لسانه، وقال الشاعر:

كفى بالمرء عيبًا أن تراه
له وجه وليس له لسان

معنى هذا أن اللسان يعد مقومًا من مقومات شخصية الإنسان، ويقال: الصمت أبلغ من عيٍّ ببلاغة.

أقول:

أرى الصمت أدنى لبعض الصواب
وبعض التكلم أدنى لعيِ

وقال أبو نواس:

مُـتُ بـداء الصـمت خيـرًا ∴ لـــك مـــن داء الكـــلام
إنمـــا الســـالم مـــن ألـــ ∴ جـــم فـــاه بلجـــام

إن المتأمـل فـى قـول أبـى نـواس يلحـظ أن امتـداح الصـمت مطلوب، والثناء على محبيه واجب.

الكتاب السادس " كتب الزهد "

وفيه الأخبار عن صفات الزَّهَّاد وكلامهم فى الزهد والدعاء والبكاء والمناجاة وذكر الدنيا والتهجد والموت والكبَر والشيب والصبر واليقين والشكر والاجتهاد والقناعة والرضا ومقامات الزَّهَّاد عند الخلفاء والملوك ومواعظهم وغير ذلك وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار .

من ذلك قول الشاعر:

وإنـــى لأدعـــو الله والأمـــر ضـــيق
عَلَـــىّ فمـــا ينفعـــك أن يتفرجـــا
ورُبَّ فتـــى سُـــدَّتْ عليـــه وحوهـــه
أصـــاب لـــه فـــى دعـــوة الله مخرجـــا

قال الأصمعى: أول شعر قيل فى ذم الدنيا قول ابن خذاق:

هل للفتى من بنات الدهر من راقى؟
أم هل لـه مـن حمـام المـوت مـن واقـى،
قـد رجَّلُـونى ومـا رُجِّلـت مـن شـعث
وألبســـونى ثيابًـــا غيـــر أخلاقـــى

وطيبـــونى وقـــالوا إنمـــا رجـــل
وأدرجـــونى كـــأنى علـــى مخـــراق
هَـــوِّن عليـــك ولا تولـــع بإشـــفاق
فإنمـــا مَالُنـــا للـــوارث البـــاقى

وحين نمعن النظر فى هذه الأبيات نجد أن معانيها مبتكرة صادقة وتعنى بالجو النفسى للألفاظ، كما أنها تتسم بتركيز الأسلوب حيث جمعت بين الخبر والإنشاء بغرض الإثارة والتشويق وجذب الانتباه وإشراك القارئ مع السامع والتعبير عن حقائق ثابتة لا تقبل الجدل والشك.

ومن شعر الوعظ قول أبى العتاهية:

ألا إنما التقوى هى العز والكرم
وحبـــك للـــدنيا الـــذل والنـــدم

الكتاب السابع " كتاب الإخوان "

وفيه الحث على اتخاذ الإخوان واختيارهم والأخبار عن المودة والمحبة وما يجب للصديق على صديقه ومخالقة الناس وحسن محاورتهم والتلاقى والزيارة والمعانقة والوَداع والتهادى والعيادة والتعازى والتهانى وذكر شرار الإخوان وذكر القرابات والولد والاعتذار وعيب الإخوان وتعاديهم وتباغضهم وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

فمن الحث على اتخاذ الإخوان واختيارهم قول ابن الأعرابى:

لعمـرك مـا مـال الفتـى بزخيـرة

ولكـــن إخـــوان الثقـــات الـــذخائر

وقال أيوب السختيانى: "إذا بلغنى موت أخٍ لى فكأنما سقط عضو منى، قال الشاعر:

أخاك أخاك إن من لا أخًا له ∴ كساع إلى الهيجا بلا سلاح
وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه ∴ وهل ينهج البازى بغير جناح؟

وأما ما يجب للصديق على صديقه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "للمسلم على المسلم خصال ست: "يُسَلِّم عليه إذا لقيه ويجيبه إذا دعاه، ويُشَمِّته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويحضر جنازته إذا مات، ويحب له ما يحب لنفسه".

قال كثير:

ومن لا يُغَمِّض عينه عن صديقه ∴ وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتتبع جاهدًا كل عثرة ∴ يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

وقال آخر:

إذا ما صديقى رابنى سوء فعله ∴ ولم يك عما ساعدنى بمُفيق
صبرت على أشياء منه تريبنى ∴ مخافة أن أبقى بغير صديق

وأما الإنصاف فى المودة فقال أبو العتاهية:

إذا لم يكن لك حسن فهم ∴ أسأت إجابةً وأسأت سمعًا
ولست الدهر متسعًا بفضل ∴ إذا ما ضقت بالإنصاف ذرعًا

أما العتاب فنقول:

ولا خير فى قُربى لغيرك نفعها ∴ ولا فى صديق لا تزال تعاتبه
يخونك ذو القربى مرارا وربما ∴ وفى لك عند الجهد من لا تناسبه

وأما عيادة المريض فقد كتبتُ إلى مريض:

نبئـت أنـك مُعْتـل فقلـت لهـم ∴ نفسـى الفداء لـه من كل مخـدور
يـا ليـت علتـه بـى غيـر أن لـه ∴ أجـر العليـل وأنـى غيـر مـأجور

وقال صلى الله عليه وسلم: "إتمام عيادتكم المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو على رأسه أو يده فى يده، ويسأله كيف هو، وتمام تحياتكم المصافحة.

وأما التعازى وما يتمثل به فيها فنقول:

اصـبر لكـل مصـيبة وتجلَّـد ∴ واعلـم بـأن الـدهر غيـر مخلـد
أو مـا تـرى أن الحـوادث جمَّـة ∴ وتـرى المنيـة للعبـاد بمرصـد
وإذا أتتـك مصـيبة تشـقى بهـا ∴ فـاذكر مصـابك بـالنبى محمـد

أمـا التبـاغض والعـداوة فقـد قيـل لأفلطـون : بمـاذا ينـتقم الإنسـان مـن عدوه؟ قال: بأن يزداد فضلا فى نفسه. قال دريد:

ومـا تخفـى الضـغينة حيث كانـت ∴ ولا النظـر الصـحيح من السقيم

وقـال عمـر بـن الخطـاب رضـى الله عنـه: اعتـزل عـدوك واحـذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشى الله.

قال الشاعر:

احـــذر عـــدوك مـــرة ∴ واحــذر صــديقك ألــف مــرة
فلربمـــا انقلـــب الصـــديق ∴ فكـــان أعلـــم بالمضـــرة

الكتاب الثامن " كتاب الحوائج "

وفيه الأخبار عن استنجاح الحوائج بالكتمان والصبر والجِدّ والهدِيَّة والرشوة ولطيف الكلام ومن يُعتَمَد فى الحاجة ومن يُستسعَى لها والإجابة إلى الحاجة والرد عنها والمواعيد وتنجُّزها وأحوال المسئولين عند السؤال فى الطَّلاَقة والعُبُوس والعادة من المعروف تُقْطَع والشكر والثناء والتلطيف فيهما والترغيب فى قضاء الحوائج واصطناع المعروف والحرص والإلحاح والقناعة والاستعفاف وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

من ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "استعينوا على الحوائج بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود"

قال أبو اليقظان: "كان بنو ربيعة يوصون أولادهم فيقولون: استعينوا على الناس فى حوائجكم بالتثقيل عليهم، فذلك أنجح لكم.

قال الشاعر:

إن الأمــــور إذا انســـدَّت مســـائلها ∴ فالصبر يفتح منها كل ما ارتُجيا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ∴ ومـدمن القـرع للأبـواب أن يلجـأ
لا تيأســـنَّ وإن طالــــت مطالبــــة ∴ إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اطلبوا الحوائج إلى حسان الوجه"

قال أحد الشعراء:

لا تطلــبن إلـــى لئــيم حاجــة ∴ واقعــد فإنــك قاعــد كالقاعــد

يا خادع البخلاء عن أموالهم ∴ هيهات تضرب فى حديد بارد

والعرب تقول لمن جاء خاليًا ولم يظفر بحاجته: "جاء على غبيراء الظهر"(1) وجاء بخُفَّى حنين، وجاء على حاجبيه صُوفة، وإن جاء وقضيت حاجته، قالوا: جاء ثانيًا من عِنانه".

وإن جاء ولم تقض حاجته، وقد أصيب ببعض ما معه، قالوا: "ذهب يبتغى قرنًا فلم يرجع بأذنين".

وتقول لمن اعتذر بالمنع بالعُدْم وعنده ما سئل "أبى الحقين العِذْرة".(2)

وقيل إن أصله أن رجلاً ضاف قومًا فاستسقاهم لبنًا، وعندهم لبن قد حقنوه فى وطب فاعتذروا أنه لا لبن عندهم، فقال: "أبى الحقين العِذْرة"، ويقال: العِذْرة طرف البخل. قال إسماعيل القراطيسى فى الفضل بن الربيع:

لن أخطأت فى حقك ∴ ما أخطأت فى منعى

لقد أخللت حاجاتى ∴ بواد غير ذى زرع

أما عن شرار الإخوان فقد كتب إبراهيم بن العباس إلى محمد بن عبد الملك الزيات:

وكنت أخى بإخاء الزمان ∴ فلما نبا صَرَتْ حربًا عوانًا

وقد كنت أشكو إليك الزمان ∴ فأصبحت فيك أسب الزمانا

---

(1) غبيراء الظهر : الأرض، أى جاء لا يصاحبه غير أرضه التى يجيئ ويذهب فيها.

(2) الحقين: اللبن الحقوق، العِذرة بالكسر: العذر.

وكنـــت أعـــدُّك للنائبـــات ∴ فهـا أنـا أطلـب منـك الأمانـا

وقال المثقب العبدى:

فإمـا أن تكـون أخـى بصـدق ∴ فـاعرف منك غثـى مـن ثمينـى

وإلا فاجْــتَـنِبنى واتخــذنى ∴ عـــدوًا أتقيــــك وتتقينـــــى

وعن المواعيد وتنجُّزها فإن العرب تضرب المثل فى الخُلف بعرقوب. قال ابن الكلبى عن أبيه "كان عرقوب رجلاً من العماليق، فأتاه أخ له فسأله شيئا، فقال له عرقوب: إذا أَطْلَع تخلى، فلما أَطْلَع أتاه، قال: إذا أَبْلَحَ أتاه، فقال : إذا أزهى، فلما أزهى أتاه، قال: إذا أرْطَب، فلما أرْطَب أتاه، قال إذا صار تمرًا، فلما صار تمرًا جَدَّه من الليل، ولم يعط أخاه شيئًا.

قال الأشجعى:

وَعَدتِ وكان الخلف منك سجيةً ∴ مواعيد عرقوب أخـاه بيتـرب

وتقول العرب فيما اصطنع معروفًا ثم أفسده بالمَنِّ، أو قطعه حين كاد يتم: "شوى أخوك حتى إذا أنضج رمَّدَ".

وتقول فيمن اغتنم الشئ من البخيل ولو كان نزرًا: "خذ من الرَّضفة ما عليها"[(1)] ومثل هذا نقول:

خـذ القليـل مـن اللئـيم وذُمَّـه ∴ إن اللئـيم بمـا أتـى معـذور

(1) الرصفة: الحجارة المحماة يوغر أى (يُسَخَّن بها اللبن، وهى إذا ألقيت فى اللبن لزق بها شئ منه).

أما الترغيب فى قضاء الحاجة فقد قال ابن عباس : "صاحب المعروف لا يقع، فإذا وقع وجد متكأ، هذا نحو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صنائع المعروف تقى مصارع السوء"

وقال رجل لبثينة: "إذا اتخذتم عند رجل يدًا فانسوها، وقالوا: المنة هدم الصَّنِيْعَة، قال أحد الشعراء:

أفسدتَ بالمن ما أسديت من حَسَن ∴ ليس الكريم إذا أسدى بمنَّانٍ
ولكن فتى الفتيان من راح واغتدى ∴ لشرب صبوح أو لشرب غَبُوق

وأما الحرص والإلحاح فقد ورد فى كتاب كليلة ودمنة: "لا فقر ولا بلاء كالحرص والشَّرّه، ولا غنى كالرضا والقناعة، ولا عقل كالتدبير، ولا وَرَع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق، قال أعرابى:

أيها الدائب الحريص المُعَنَّى لك رزق وسوف تستوفيه
قبّح الله نائلاً ترجيه من يَدَّى من تريد أن تقتضيه
إنما الجود والسماح من يعطيك عفوًا وماءً وجهك فيه
لا ينال الحريص شيئًا فيكفيه وإن كان فوق ما يكفيه
فسل الله وحده وَدَع الناس وأسخطهم بما يرضيه
لا ترى مُعطيًا لما منع اللهُ ولا مانعًا لما يعطيه

الكتاب التاسع " كتاب الطعام "

وفيه الأخبار عن الأطعمة الطيبة والحَلْواء والسَّوِيق واللبن والتمر والخبائث منها التى يأكلها فقراء الأعراب ، ونازلة الفقر وأدب الأكل وذكر الجوع والصوم وأخبار الأَكَلَة والمَنْهُومين والدعاء إلى المآدب والضيافة وأخبار البخلاء بالطعام وسياسة الأبدان بما يصلحها

مـن الغـذاء والحِمْيـة وشـرب الـدواء ومضـارّ الأطعمـة ومنافعهـا ومصـالحها ونُتَـف مـن طَـبِّ العرب والعجم ومـا جـاء فـى ذلـك مـن النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

مـن ذلـك أن الأصـمعى قـال: كنـا عنـد الرشـيد فقـدَّمت إليـه فالوذجـة[1] فقـال : يـا أصـمعى حدثنا بحديث مُزوِّد، فقلت إن مُزَوِّدًا أخا الشماخ كان غلاماً جشعًا، وكانت أمه تؤثر عيالها بالطعام عليه، وكان ذلك يحفظه[2] فخرجت أمه ذات يوم تزور بعض أهلها، فدخل مزوِّد الخيمة، وعمد إلى صَاعَىّ دقيق، وصاع من تمر، وصاع من سمن، فجمعه ثم جعل يأكله، وهو يقول:

ولمـا غَـدَت أمـى تميـز نباتَهـا
أغْـرَتْ علـى العِكـم[3] الـذى كـان يُمنـع
لبَكَّتْ بصاعى حِنطة صاع عجوة
إلـى صـاع سـمن فوقـه يتربَّـع[4]
ودبَّلـتْ أمثـال الأثـافى[5] كأنهـا
رؤس نِقـاد[6] قَطِّعـتْ يـوم تجمـع
وقلـت لبطنـى أبشـر اليـوم إنـه
حمـى أمِّنـا ممـا تحـوز وترفـع

---

(1) الفالوذجة: حلواء يسوى من لب الحنطة (فارسية معربة).
(2) يحفظه: يغضبه.
(3) العِكم : بكسر العين : النمط تجعله المرأة كالوعاء تدَّخر فيها متاعها.
(4) يتربع: لا يستقر له وجه لكثرته.
(5) الأثافى: مفردها الأثفية وهى أحجار ثلاثة توضع عليها القدر.
(6) نِقاد: مفردها نقدة وهى الصغيرة من الغنم، والذكر والأنثى فى ذلك سواء. .

فــإن كــان مصــفورًا[1] فهــذا دواؤه

وإن كــان غرثانًــا[2] فــذا يــوم تشــبع

أما الجوع والصيام فقد قدم أعرابى على ابن عم له بالحضور، فأدركه شهر رمضان، فقيل له: أبا عمرو لقد أتاك شهر رمضان، قال: وما شهر رمضان؟ قالوا: الإمساك عن الطعام، قال: أبالليل أم بالنهار؟ قالوا: لا: بل بالنهار، قال: أفيرضون بدلاً من الشهر؟ قالوا: لا، قال : فإن لم أصم فعلوا ماذا؟ قالوا: تُضْرب وتُحْبس، فصام أيامًا فلم يصبر، فارتحل عنهم وجعل يقول:

يقول بنو عمِّى وقد زرت مصرهم ∴ تهيأ أبا عمرو لشهر صيام

فقلت لهم هاتوا جرابى ومزقوه ∴ سلام عليكم فاذهبوا بشلام

فبادرت أرضًا ليس فيها مسيطر ∴ علىَّ ولا منَّاع أكل طعام

وأدرك أعرابى شهر رمضان فلم يصم، فعذلته امرأته فى الصوم، فزجرها وأنشأ يقول:

أتأمرنى بالصلاة لأدرَّ دُرُّها ∴ وفى القبر صوم يا أميم طويل

أما عن الضيافة وأخبار البخلاء على الطعام فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الخير أسرع إلى مطعم الطعام من الشفرة فى سنام بعير. سئل أَقْرَى أهل اليمامة الضيف: كيف ضبطتم القِرى؟ قال: بأنا لا نتكلَّف ما ليس عندنا.

وقال الخزيمى:

---

(1) مصفورًا: أى به صُفر، وهو داء فى البطن يصفر منه الوجه.

(2) الغرثان: الجائع.

أضـــاحك ضـــيفى قبـــل إنـــزال رحلـــه
ويُخصـــــب عنـــــدى والمحـــــل جضـــــيب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى[1]
ولكنَّمـــــا وجـــــه الكـــــريم خصـــــيب

الكتـاب العاشـر " كتـاب النسـاء" وفيـه الأخبـار عـن اختـلاف النسـاء فـى أخلاقهـنّ وخَلْقهـنّ ومـا يُختـار مـنهن للنكـاح ومـا يُكـره واختلاف الرجال فى ذلك، والحسن والجمال والقبح والدَّمامة والسواد والعاهات والعجز والمشايخ والمُهُور وخِطَب النكاح ووصايا الأولياء عنـد الهِدَاء وسياسـة النسـاء ومعاشـرتهنّ والـدخول بهـنّ والجمـاع والولادات، وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار. من ذلك قول بعض المحدثين فى الحسن والجمال:

الخـــال يقـــبح بـــالفتى فـــى خـــده
والخـــــال فـــــى خـــــد الفتـــــاة ملـــــيح
والشـيب يحسـن بـالفتى فـى رأسـه
والشـــــيب فـــــى رأس الفتـــــاة قبـــــيح

أما مهور النساء فقد جاء خاطب إلى قوم، فقال: أنا فلان ابن فلان، وأنتم لا تسألون عنى أعلم بى منكن، قالوا: صدقت. فما تبذل؟ فأنشد يقول:

ألا أبلـــغ لـــديك بنـــى يزيـــد
بـــأنى لا أريـــد إلـــى النســـاء

---

(1) القِرى : ما يقدم للضيف.

سِــوَى وُدِّى لهــن وأنَّ عنــدى
ثريـــــدًا بالغـــــداة وبالعشـــــاء

أما وصايا الأولياء للنساء فقد قال أبو الأسود الدؤلى: لابنته: إياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق، وعليك بالزينة، وأزين زينة الكحل، وعليك بالطيب، وأطيب الطيب إسباغ الوضوء، وكونى كما قلت لأمك فى بعض الأحاديث:

خــذى العفــو منــى تســتديمى مــودتى
ولا تنطقــى فــى ســورتى حــين أغضــب
فـإنى وجدت الحب فـى الصدر والأذى
إذا اجتمعــا لــم يلبــث الحــب يــذهب

أما سياسة النساء ومعاشرتهن فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما المرأة خلقت من ضلع عوجاء، فإن تحرص على إقامتها تكسرها فدارها تعش بها"

ولقد مرت أعرابية بقوم من بنى نمير، فأداموا النظر إليها، فقالت: يا بنى نمير، والله ما أخذتم بواحدة من اثنتين، لا، بقول الله تعالى(قُل لِلَمُؤمِنِينَ يَغُضُوا مِنُ أَبَصَارِهِمِ)[1] ولا، بقول جرير:

فغـض الطـرف إنـك مـن نميـر
فـــلا كعبًـــا بلغـــت ولا كلابـــا

فاستحيا القوم من كلامها وأطرقوا.

---

(1) سورة النور : آية/30.

بات أعرابى ضيفًا لبعض الحضر، فرأى امرأة فَهَمَّ أن يخالف إليها[1] فمنعه الكلب، ثم أراد ذلك نصف الليل فمنعه ضوء القمر، ثم أراد ذلك فى السحر فإذا عجوز قائمة تصلى فقال:

لم يخلق الله شيئًا كنت أكرهه
غيرَ العجوز وغيرَ الكلب والقمر
هذا يبوح وهذا يستضاء به
وهذه شيخة قَوَّامة السحر

أما الغزل فقد قال أبو صخر الهزلى:

أما والذى أبكى وأضحك والذى
أمان وأحيا والذى أمره الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى
أليفين منهما لا يروعهما الذَّر
فيا هجر ليلى قد بلغت بى المدى
وزدت على ما لم يكن بلغ الهجر
ويا حبها زدنى جوى كل ليلة
ويا سلوة الأيام موعدنا الحشر
وصلتك حتى قيل لا يعرف القلى
وزرتك حتى قلت ليس له صبر
عجبت لسعى الدهر بينى وبينها

---

(1) يخالف إليها: يجئها خفية، وفى غفلة من الرقباء.

لمـا انقضـى مـا بيننـا سـكن الـدهر

إذا ذُكــرتْ يرتــاح قلبــى لــذكرها

كمـا انـتفض العصـفور بـالله القطـر

هـل الوَجْـد إلا أن قلبـى لـو دَنَـا

من الجمر قيد الرمح لاحترق الجمر

لقد تنوعت موسيقى هذه الأبيات وتناسقت مع العواطف، وتآلفت أفكارها، فبدت صورها قريبة من الحقيقة، فلا هى صور خيالية رومانتيكية حالمة، ولا هى ضبابية تتحدى الذكاء والفطنة.

ويبدو تأثر ابن قتيبة فى هذا الكتاب بإسلوب الجاحظ ت "255 هـ" فى كتابه البيان والتبيين ، فالجاحظ عقد كتابه – وإن كان فيه قدر من الاستطرادات – للدفاع عن العرب ضد ادعاءات أعدائهم من الموالى ، وابن قتيبة عقد كتابه – وإن كان أحيانا يميل إلى التسلية والفكاهة – لكى ينير الطريق أمام المتأدب ليروض نفسه على الأخذ بما فيها من سنة حسنة ، وسيرة قويمة وأدب كريم ، وخلق عظيم ..[1]

وقد طبع " عيون الأخبار " فى فابير – ستراسبورج سنة 1900 – 1908م " بتحقيق المستشرق كارل بروكلمان، وهذه الطبعة مكونة من أربعة أجزاء ، ثم طبعته دار الكتب المصرية . وتوالت طبعاته فيما بعد ، وآخرها طبعة " 1973م" .

6- المعانى الكبير :

1- ابن قتيبة ، مقدمة عيون الأخبار

ذكره ابن النديم باسم " معانى الشعر الكبير " [1] بيد أن المؤلف أشار فى كتابه " عيون الأخبار " إلى أن اسمه " أبيات المعانى " [2] قائلاً : " وقد فسرت هذا الشعر فى كتابى المؤلف فى أبيات المعانى فى خلق الفرس " [3] .

ويضم هذا الكتاب بين دفتيه القصائد والمقطوعات الشعرية ، وبعض الأبيات المتفرقة فى ثناياه ، وهو فى رأينا – عظيم الفائدة ، لأنه فسر الأبيات الشعرية ، وشرحها، كما أنه استفاض فى الأشعار الغريبة مع بيان معانيها . وفى الكتاب اثنا عشر بابًا سَمَّى ابن قتيبة كل باب منها كتابًا ، وهى: " كتاب الخيل ، كتاب السباع ، كتاب الطعام والضيافة ، كتاب الذباب ، كتاب الوعيد والبيان ، كتاب الحرب ، كتاب الميسر ، كتاب فى وصف الشعر والشعراء ، كتاب التطير والفأل ، كتاب فى وصف الآثار والآداب ، وكتاب مكارم الأخلاق ".

وقد طبع المعانى الكبير فى حيدر أباد – الدكن – سنة 1368 هـ فى مجلدين ، بعناية ومراجعة المستشرق الدكتور كرنكو krinkou.

1- الفهرست : ص 115.

2- أبيات المعانى تعنى فى اصطلاح الأدباء ما كان باطنه يخالف ظاهره ، وإن لم يكن فيه شئ من غريب اللغة "

3- عيون الأخبار : ج1 ص 158.

7- غريب الحديث :

ذكره معظم من ترجم لابن قتيبة [1] وواضح من اسمه أنه يشتمل على الأحاديث الغريبة ، قام بشرحها مؤيداً رأيه بما ذكره علماء المدرستين البصرية والكوفية ، كما أنه فسر دلالة بعض الألفاظ مثل الكافرين ، والظالمين ، والصلاة ، والزكاة إلى آخره.....

وقد طبع لأول مرة فى العراق سنة 1397 هـ = 1977م" فى مطبعة العانى التابعة لوزارة الأوقاف ، بتحقيق الدكتور عبد الله الجبورى .

8- تأويل مختلف الحديث :

وواضح من اسمه أنه يفسر الأحاديث المختلفة والتى أشكل فهمها ، والهدف من تأليفه هذا الكتاب هو التعرف على الأحاديث المتناقضة ، وتصحيح بعضها ، تلك التى ادعى عليها المتكلمون التناقض.

وقد طبع فى القاهرة سنة 1326 هـ" فى مطبعة كردستان العلمية باسم " تأويل مختلف الحديث " ثم نشره الشيخ محمد زهرى النجار فى مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة سنة 1386 هـ = 1966م.

9- المعارف :

1- تاريخ بغداد : ج10 ص 170 ، الفهرست : ص 116 ، وفيات الأعيان : ج3 ص 42 ، معجم الأدباء : ج4 ص 34.

وقد سجل فيه ابن قتيبة فنونًا كثيرة من المعارف ، يقول فى مقدمته له : " وكتابى هذا يشتمل على فنون كثيرة من المعارف ، أولها مبتدأ الخلق ، وقصص الأنبياء ، وأزمانهم ، وحُلاهم ، وأعمارهم .... إلى آخره [1]

والكتاب يبرز اهتمام ابن قتيبة بالتاريخ عن طريق إعطاء معلومات عن الأحداث المهمة التى تخصه ، وهو كذلك يعبر عن اهتمام ابن قتيبة بكتب السير والمغازى ، والطبقات التى أُلِّفت قبله.

وفى رأينا ، أن هذا الكتاب يعد من كتب الثقافة الإسلامية ، التى تهدف إلى التعرف على قصص الأنبياء والمرسلين وصفاتهم وأعمارهم ، وغير ذلك .

وقد طبع لأول مرة بعناية ومراجعة المستشرق الألمانى اف ويستنفلد wustenfeld سنة " 1850" الميلادية، ثم توالت طبعاته فيما بعد ، أفضلها طبعة دار المعارف بالقاهرة ، بتحقيق الدكتور ثروت عكاشة .

10- الأنواء :

وقد ذكره معظم من ترجموا لابن قتيبة [2] تحدث فيه ابن قتيبة عن علم الميقات عند العرب ، والسُّحب ، والبَرق ، ومساقط النجوم ، ومواقع الكواكب وأسمائها ، والأزمان وتحديدها ، وتنبؤات العرب الفلكية والجوية ... وغير ذلك .

1- نظر مقدمة كتاب المعارف .

2- بغية الوعاة: ج2ص 263 ، إنباه الرواة: ج2ص 146، وفيات الأعيان: ج3ص 43

ونظن أن ابن قتيبة كان يرحل إلى الأعراب الفصحاء فى البادية – الذين لهم دراية فى علم الفلك – يستقى منهم معلومات هذا الكتاب .

ويذكر الدكتور عبد الحميد الجندى ، نقلاً عن الأدب الفارسى "Literory History Of Persia" أن بعض المستشرقين من علماء الفلك ، وعلى رأسهم إدوارد براون "E. Broune" يعتبرون ابن قتيبة من كبار علماء الفلك .

ونحن نؤيدهم فى هذا الرأى ، على أساس أن كتاب " الأنواء" فيه معلومات صادقة عن النجوم والكواكب وأسمائها إلى آخره ...، ومما يعضد كلامنا هذا ويدعمه ، أنه كان يرحل إلى العرب الفصحاء ليستقى منهم مادة كتابه.

11- الميسر والقداح :

ذكره معظم مترجمى ابن قتيبة [1] ومن مقدمة الكتاب نعرف أنه صنفه استجابة لرغبة أحد مُريديه ، الذى أبدى له حاجته فى التعرف على نفع الميسر ، وأسماء القداح عند العرب[2].

ويبدو لنا اهتمام ابن قتيبة بالمفردات اللغوية ، وتفسير دلالة بعض الألفاظ ، ومما يؤيد هذا ، تفسيره لآيات الخمر .... وبعض الأبيات الشعرية التى جمعها فى الميسر.

وقد نشر الكتاب محققًا لأول مرة الشيخ محب الدين الخطيب سنة 1343هـ وطبعه بالمطبعة السلفية بالقاهرة ، ثم طُبع مرة أخرى سنة 1385هـ.

1- وفيات الأعيان: ج3 ص 43، وإنباه الرواة: ج2 ص 146، والفهرست:ص 116

2- انظر مقدمة كتاب الميسر والقداح.

12- المسائل والأجوبة فى الحديث واللغة :

ذكره معظم من ترجم لابن قتيبة [1] ومن عنوانه نفهم أنه عبارة عن أسئلة فيها ألفاظ عربية ، وجهها ابن قتيبة لأحد تلاميذه ، ثم يجيب عليها ، مفسرًا دلالة بعضها ، ويعد هذا الكتاب – فى رأينا – من الكتب اللغوية التى أثرى بها ابن قتيبة المكتبة اللغوية .

والمسائل والأجوبة كتاب صغير الحجم نُشر فى مكتبة المقدسى سنة 1949 ، ثم نشر بعد ذلك فى مجلة المورد البغدادية فى العدد الرابع ، سنة 1974م [2].

13- الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة

وقد ذكره كثير ممن ترجموا لابن قتيبة [3] وذكره السيوطى باسم " الرد على المشبهة" [4].

وفى الكتاب ، راح ابن قتيبة يفسر بعضًا من الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة التى اختلف فى فهم معانيها ، هذا من خلال رده على الجهمية والمشبهة ، ومن ثم نفهم من عنوانه أنه ألفه للرد عليهما بأدلة من الكتاب والسنة .

1- إنباه الرواة: ج2 ص 146، وفيات الأعيان: ج3 ص 43 ، الفهرست: ص 116

2- مجلة المورد البغدادية ، العدد الرابع ، لسنة 1974م

3- إنباه الرواة : ج2 ص 146 ، والفهرست : ص 116.

4- بغية الوعاة : ج2 ص 63.

وقد طبع هذا الكتاب فى مطبعة منشأة المعارف بالإسكندرية سنة 1971م ، وطبع أيضًا سنة 1346هـ = 1930م ضمن منشورات مكتبة المقدسى بالقاهرة .

14- تلقين المتعلم من النحو:

وقد ذكر بعض مترجمى ابن قتيبة أن له كتابًا فى النحو، وأنه خُلط عليه بحكايات عن الكوفيين ، لم يكن يأخذها عن ثقات ، وكان يتسرع فى أشياء لا يقوم بها . نحو تعرضه لتأليفه كتابًا فى النحو [1] بيد أن أغلب مترجميه أكد أن له كتابين فى النحو " جامع النحو الكبير " و جامع النحو الصغير" [2] .

وقد نص بروكلمان على أن له كتابًا بعنوان "تلقين المتعلم من النحو"[3] ومن مقدمة كتابه "تلقين النحو" نعرف أنه ألفه من أجل التعليم والإفادة لطلاب العلم ، حيث يقول: "هذا كتاب تلقين المتعلم من النحو ، وفيه إفادة للعالم وتفهم للمتعلم ، وأول ما يُبْتدأ به التلقين

1- أبو الطيب اللغوى ، مراتب النحويين : ص 137.

2- الفهرست : ص 86 ، وتاريخ بغداد : ج10 ص 170 ، وإنباه الرواة : ج2 ص 146 ، وبغية الوعاة ج2 ص 64.

3- كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى : ج2 ص 229.

إعراب "بسم الله الرحمن الرحيم" وأول ما يُلقّن المتعلم معرفة الحركات من الرفع والنصب والجر...[1]

وحين قرأناه، وجدناه يكرر لفظ " ما يُلقّن المتعلم كثيرا، فهو يقول – مثلاً – باب ما يلقن من حروف الجر [2] "وباب ما يضاعف من الحروف وكيف يلقن المتعلم إياها؟"[3]

وأنت – كما ترى – تلحظ أننا ركزنا على إيضاح هذا الكتاب نظرًا لأهميته فى الدراسات النحوية .

وقد حقق " كتاب تلقين النحو " الدكتور جمال عبد العاطى مخيمر ، وعلق على مسائله وشواهده ، وظهرت الطبعة الأولى منه سنة 1409 هـ = 1989م ، فى مطبعة وهبه حسان ، بالقاهرة .

وهناك عدد آخر من كتبه ، لم تصل إلينا ، لكن ورد ذكرها فى أغلب المصادر التى ترجمت لابن قتيبة وبيانها :

15- كتاب إعراب القرآن 16- كتاب النخل
17- كتاب الأشربة 18- كتاب إصلاح الغلط فى غريب الحديث
19- كتاب العلم 20- كتاب فضل العرب والتنبيه على علومها

1- ابن قتيبة ، تلقين المتعلم من النحو : ص 35.
2- المصدر السابق : ص 61
3- المصدر السابق : ص 51 .

21- كتاب جامع الفقه
22- كتاب التقفية
23- كتاب القلم
24- ديوان الكُتَّاب
25- خلق الإنسان
26- دلائل النبوة
27- الجوابات الحاضرة
28- كتاب الصيام
29- آلة الكُتَّاب
30- الحكاية والمحكى
31- كتاب الوحش
32- كتاب الجراثيم
33- حكم الأمثال
34- آداب العِشْرة
35- صناعة الكتابة
36- التفسير
37- تأويل الرؤيا
38- معجزات البنى صلى الله عليه وسلم
39- معانى القرآن
40- كتاب الفُرْس
41- عيون الشعر
42- كتاب القراءات
43- آداب القراءة
44- كتاب الوزراء
45- فوائد الدر

المبحث الثالث

بين أدب الكاتب وإصلاح المنطق

المبحث الثالث

بين أدب الكاتب وإصلاح المنطق

نحن إذا تبينا عنوان الكتاب " أدب الكاتب" وجدنا الكثير من الباحثين يسارعون بأيديهم وأذهانهم للبحث فيه على أساس أنه كتاب أدب ، يتناول دروب ذلك الفن ومسالكه ، ولكنهم يصابون بخيبة الأمل ، عندما يدركون أنه كتاب لغة ، فإذا ما حاولوا الانتفاع به احتاجوا إلى الجهد والعناء وإشحاذ الذهن حتى يتسنى لهم الغوص فى أبوابه ، وذلك أنه كتاب لغة ، يحمل منها ما يحتاج إلى سبر الغور والتنقيب والتمحيص فى تلك اللغة الحية المتطورة.

ولقد زعم الزاعمون ، وتعالت أصوات أهل العلم ، يقولون " إن كتاب أدب الكاتب " خطبة بلا كتاب ، و "إصلاح المنطق " كتاب بلا خطبة ، وهذا فيه نوع من التجوز ، فإن "أدب الكاتب" قد حوى من كل شئ وهومفنن ، وما أظن حملهم على هذا القول إلا أن الخطبة طويلة ، والإصلاح بغير خطبة[1].

بل ، لقد ذهب آخرون إلى أن كتاب "أدب الكاتب" ما هو فى الحقيقة إلا استنساخ مبتور من كتاب "إصلاح المنطق" إذ ضمنه ابن قتيبة معظم الأبواب التى وضعها ابن السكيت فى كتابيه " الألفاظ" وإصلاح المنطق" [2] منكرين بذلك جهود ابن قتيبة وفضله ، واصمين

1– ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ج 3 ص42.

2– ابن السكيت ، مقدمة إصلاح المنطق : ص 11.

إياه بالجحود ونكران الجميل ، إذ إنه لم ينكر فى مقدمة كتابه فضل ابن السكيت ، وفى كل ذلك إجحاف وعدم إنصاف.

وبالرغم من أن هذا الموضوع الذى نحن بصدده ، ليس بالموضوع الذى يستحق الخلاف ، ولكن إحقاقًا للحق وبعدًا عن التعصب سأبينُ حقيقة هذا بإيجاز ، ودون إسراف.

أما أن "أدب الكاتب" خطبة بلا كتاب ، فلى وجهه نظر مبعثها ذلك التقديم القيم الذى صَدَّر به ابن قتيبة مصنفه ، واضعاً النقاط فوق الحروف مبينًا سبل الإفادة من تأليفه لهذا الكتاب ، بأنه يعالج داءً قد استشرى فى لغة العرب ، وهو داء اللحن والخطأ فى الكلام ، وأنه خشى على اللغة أن تتحدر ، أو يقل إدراك الناس لدقائقها ، ومعرفة الفروق بين مترادفاتها ، وعلى قدر الحاجة يكون المدد ، فإن زاد أسرف، وإن نقص أخل ، وما نراه إلا قد وَفَّى بالغرض الذى من أجله صنف مصنفه ، فقد ألفه من أجل تهذيب الكُتَّاب وإرشادهم إلى سنن الصواب ، ذلك أنهم قد أهملوا النظر فى العربية ، وجهلوا الكثير من مسائلها ، فكان هذا الكتاب القيم – فعلاً – بمثابة المرشد اللغوي الذي يكفل النجاح، لمن أخذ بأشراطه، وعمل بما نَوَّهَ عليه ، حتى يخلق كُتَّابًا نابهين، ولأمور الكتابة حاذقين ، ولمعرفة قواعد رسم الكلمات فاهمين.

فعلى الرغم من أن اللغة العربية كانت اللغة الرسمية فى تلك الآونة – أعنى القرن الثالث الهجرة الذى عاش فيه ابن قتيبة – وفى

تلك الأقاليم الإسلامية الجديدة ، وعلى الرغم من توافر العلماء على دراستها والتأليف فيها واصطناعها فى الآداب ، لم تسلم من انتشار اللحن والتغيير والانحراف على ألسنة العامة ، بل على ألسنة الخاصة كذلك – أعنى الكُتَّاب والولاة والوزراء– ومما يؤيد هذا أن من يرجع إلى مقدمة أدب الكاتب يجد أن لغة المكاتبات الرسمية التى تصدر على ألسنة الخلفاء والوزراء لم تسلم من تسرب اللحن والخطأ والتصحيف والانحراف والبعد عن اللغة الفصحى [1] فاللحن فى الكلام أقبح من التفتيق فى الثوب ، والجدرى فى الوجه [2] والسبب فى نشوء هذا اللحن – فى نظرنا – يرجع إلى اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى ، فنتج عن ذلك الاختلاط أن كثر اللحن وشاع الخطأ وتسربت العجمة ، حيث بدأ الأعاجم يتخذون اللغة الفصحى لغة لهم ، وحيث بدأ العرب يتزوجون من غير العربيات ومن هنا بدأ اللحن ، فالأعجمى حديث العهد باللغة العربية الفصحى ، ولسانه لا يطاوعه على النطق ببعض حروفها وكلماتها نطقًا سليمًا ، ثم أخذ اللحن يشيع حتى بعد وضع قواعد النحو وأصوله وقوانينه ، بل يقال إنه ما وضعت قواعد النحو إلا بسببه ، ثم بدأ اللحن يسرى أيضاً على ألسنة الخاصة أنفسهم ، أعنى بذلك الخلفاء والولاة وكتابة الدواوين.

---

[1]– انظر مقدمة أدب الكاتب : ص 6 وما بعدها.

[2]– د: رمضان عبد التواب ، لحن العامة والتطور اللغوى: ص 9.

فهذا موقف من المواقف المخزية يدل على جهل الكُتَّاب باللغة الفصحى ، فيحكى عن أحمد بن عمار كاتب الخليفة المعتصم[1] – الذى عاصره ابن قتيبة – حين ورد عليه كتاب فيه " ومطرنا مطرًا كثير عنه الكلأ فسأله الخليفة المعتصم . وما الكلأ ؟ فتردد فى الجواب وتعثر لسانه [2] وها هو الجواليقى يوضح لنا دلالة هذا اللفظ ، يقول : " قال أبو محمد بن عبد الملك : الكلأ ، النبات كله رطبه ويابسه ، والرطب خاصة يقال له خلى ، واليابس يقال له حشيش" [3].

وكاتب آخر هو شجاع بن القاسم ، قرأ على المستعين كتابا ، ذكر فيه " حاضر طيئ" فصحفه تصحيفًا أضحك منه الحاضرين" [4] قال الجواليقى " صحف هذه اللفظة فقال : " جاء ضرطى"[5] .

وكاتب آخر يجهل الألفاظ الموضوعة فى وصف برذون [6] أهداه ، وقد بعثت به إليك أبيض الظهر والشفتين، فقيل له لو قلت أرثم ألمظ ، قال : فبياض الظهر ما هو ؟ قالوا : لا ندرى ، قال :

1– الخليفة المعتصم : هو الابن الثالث للرشيد ، وقد استكثر من الأتراك والفرس حتى ضاقت بهم بغداد ، فاضطر لأن ينشئ لهم مدينة جديدة هى سامراء " سر من رأى " سنة 221هـ ، وأراد أن يجلعها العاصمة الرسمية لملكه.

2– ابن قتيبة ، أدب الكاتب : 6 وما بعدها .

3– الجواليقى ، شرح أدب الكاتب : ص 43.

4– ابن قتيبة ، مقدمة أدب الكاتب : ص 7.

5– الجواليقى ، شرح أدب الكاتب : ص 43.

6– البرذون : يعنى الفرس غير العربى.

إنمـا جهلـتَ مـن الشـفتين مـا جهلـتم مـن الظهـر[1] قـال الجـواليقى : " والبرذون من الخيل ما كـان مـن غيـر نتـاج العِرَاب ، والأنثـى برذونـة .... وإذا إبيضت جحفلـة الفرس العليا فهو أرثم وإذا ابيضتْ جحفلته السفلى فهو ألمظ ، فأراد أبيض الظهر ، فهو أرحل ، وقيل الأرحل الذى موضع ملبده بياض من البلق "[2] .

ونفهم مما سبق أن الكتاب جهلوا الألفاظ الموضوعة لبياض جحفلة الفرس " شفته وبياض ظهره" ، وهى الأرثم والألمظ والأرحل" .

وآخرون من الكتاب تغيب عنهم الفروق الدقيقة بين مدلولات الألفـاظ "فـلا يسـتطيعون التفريـق بـين الوكـع والكـوع ، ولا الحنـف مـن الفدع ، ولا اللمـى مـن اللطـع"[3] قـال الجـواليقى : " الوكـع ميـل إبهـام الرجـل علـى الأصـابع حتـى تـزول فيـرى شـخص أصـلها خارجًـا.... والكوع اعوجاج اليد من قبل الكوع ، وهو رأس الزند الذى يلى الإبهام .... والحنف إقبال كل واحدة من الإبهامين على صاحبتها فى قول الأصـمعى ، وقـال ابـن الأعرابـى: الأحنـف الـذى يمشـى علـى ظهـر قَدَميـة ، والفـدع ، قـال الأصـمعى: أن تميـل الكـف علـى وحشـيها ، واللمى سمرة فى الشفة تضرب إلى السواد ، واللطع له موضعان، أن

---

[1]– ابن قتيبة ، مقدمة أدب الكاتب : ص 7.

[2]– الجواليقى ، شرح أدب الكاتب : ص 44.

[3]– ابن قتيبة ، مقدمة أدب الكاتب : ص 8.

تذهب الأسنان وتبقى أصولها ، واللطع أيضًا من الشفاه بياض يصيبها"[1]

ونستخلص من كل ما سبق أن الذى دفع ابن قتيبة لتأليف "أدب الكاتب" هو أن يأخذ بأيدى هؤلاء الكُتَّاب وغيرهم ممن يجهلون الفروق الدقيقة بين الألفاظ ومدلولاتها، فلا يستطيعون التفريق بينها وبين مدلولاتها ، ومن ثم لم يكن هدف ابن قتيبة وغيره ممن ألفوا فى لحن العامة أن يسجلوا لنا شيئا من مظاهر تطور اللغة ، بل كان همهم الأكبر هو إعادة هؤلاء الخارجين على الفصحى إلى حظيرة اللغة القديمة .... بأن يجمعوا طائفة من الألفاظ التى يخطئ فيها الناس فى زمانهم ، ويبرهنوا على خطئها ، بالرجوع إلى المادة التى جمعها اللغويون الأوائل من أفواه العرب"[2].

ومن مقدمة الكتاب ، نعرف أن ابن قتيبة وضعه لبيان ما يجب أن يكون عليه كُتَّاب الديوان ، وما يحتاج إليه فى صناعة الكتابة من مختلف العلوم والثقافة .

ويبدو أن صلة ابن قتيبة بوزير الدولة "عبيد الله بن يحيى ابن خاقان الذى تولى الوزارة فى عهدى المتوكل والمعتمد من سنة 236 هـ إلى سنة 256هـ ، "هى التى هيأت له وضع هذا الكتاب ، فتوسل به إليه ، وأحسن صلته ، واصطنعه ، وقدمه للمتوكل ، وأحسن الثناء

1- الجواليقى ، شرح أدب الكاتب : ص 45 وما بعدها.

2- د: رمضان عبد التواب ، لحن العامة والتطور اللغوى: ص 64 وما بعدها.

عليه عنده ، حتى صرفه المتوكل إلى بعض عمله" [1] ومعنى هذا أن ابن قتيبة أَلَّفَ أدب الكاتب لأبى الحسن عبيد الله ابن يحيى بن خاقان وزير المعتمد على الله ابن المتوكل على الله الخليفة العباسى.

ولما كانت اللغة وسيلة التفاهم بين الأفراد ، وحاملة المعانى التى تدور بشأنها المكاتبات فى أى عصر من العصور، ولما كان الكُتَّاب يجهلون التفريق بين الألفاظ ومدلولاتها مما كان سببًا فى وقوعهم فى بعض الأخطاء ، فلم يكن بُدَّ – والحال كذلك – أن يسخط ابن قتيبة على طبقة هؤلاء الكتاب وأولئك – الذين تسربت لغة التخاطب ، والحياة اليومية إلى لغتهم الفصحى، محاولاً الأخذ بأيديهم إلى مواطن الصواب ، مرشدًا وهاديا لهم لجهلهم الشنيع باللغة الفصحى ، على النحو الذى تقدمت بعض نماذجه.

وبناء على ما سبق فإن ابن قتيبة صنف مصنفه لأهل زمانه الذين انصرف أكثرهم عن طلب الأدب ، وأهملوا النظر فى علوم الفقه والتفسير والفرائض واللغة والنحو " .

أما أن كتاب "إصلاح المنطق" لابن السكيت كتاب بلا خطبة ، فقد يكونون قد ذهبوا مذهب الصواب ، إلا أننا نزعم أن ابن السكيت ، إنما عَدَلَ عن الخطبة على اعتبار أن قارئ مصنفه يتميز بالفطنة والذكاء ، خصوصًا أن مصنفه هذا لم يكن إلا من أجل طبقة المعلمين لإصلاح ما فسد من منطق المتعلمين ، وهو إن قَصَّرَ فى هذا فإنه أفاض فى الكتاب

---

[1]– ابن قتيبة ، مقدمة أدب الكاتب ، هامش : ص 5.

مما حوى ، إذ ضمنه من اللغة ما وسعه الجهد والإدراك ، من وضع متشابه الكلم ومختلفه وتصنيفه فى أبواب ارتآها ، والتى زعم الزاعمون بعد ذلك أن ابن قتيبة نقل معظمها ، ورغم نقله أنكر وأغفل فِكر سابقيه وفضلهم.

وحقيقة ذلك ليست كذلك ، إذ إن درجات العرفان تتفاوت باختلاف الأنفس ووجهات النظر ، فإنه إن كان يحمد للسابقين جهودهم على ما حفظوا ، أو دونوا ، فقد نالوا ما هدفوا إليه ذلك الحمد من خلال المكانة ، أو العطايا، وما نحمده لهم من قبيل التفضل من المعاصرين أو العرفان بالجميل كل حسب رؤياه ...

أما عن تلك الاستفادة والنقل من ابن السكيت ، فنحن لا ننكر هذا ولا يؤخذ عليه ذلك ، إذ إن من الطبيعى أن تتوارث العلوم ، فيستفيد اللاحقون من السابقين ، فأستاذنا الدكتور رمضان عبد التواب ذكر أن ابن قتيبة يلخص كلام ابن السكيت بلفظه ، ولم يعترف بذلك ابن قتيبة(1).

ثم استدل على ذلك بالأمثلة التى أوردها ابن قتيبة فى "باب ما جاء بالصاد وهم يقولونه بالسين" (2) وقارنها بأمثلة ابن السكيت فى "

[1]- د: رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوى: ص162 وما بعدها

[2]- ابن قتيبة ، أدب الكاتب : ص 134.

باب ما يتكلم فيه بالصاد مما يتكلم به العامة بالسين ومما يتكلم فيه بالسين ، فيتكلم فيه العامة بالصاد " [1].

ويُبَيِّنُ أستاذنا أيضًا أن هذا ليس مقصورًا على هذا الباب، بل إن المرء ليحس به فى أبواب كثيرة ، ولا سيما تلك التى يتفق عناوينها فى الكتابين " [2]. وحقيقة الأمر أنه عند إمعان النظر فى " أدب الكاتب" ومراجعته على إصلاح المنطق، نجد أن ابن قتيبة نقل – بالفعل كما ذهب أستاذنا الدكتور رمضان – من إصلاح المنطق ، وهذا يكون على اعتبار السبق والمعاصرة ، وهى استفادة لا يمكن إنكارها بأية حال من الأحوال ، ولكن لم نصم ابن قتيبة بما ليس فيه ، فهو عالم ، فقيه ، لغوى ، نحوى ، اتسم بالورع والتقى ، وسعة الاطلاع ، وقوة الحجة ، وطول الباع ... فكيف نصفه بأنه نقل عن ابن السكيت معظم أبواب كتابه " إصلاح المنطق" وننسى أن الذكاء الإنسانى يتسم بالتشابه الفطرى فى بعض معالجات الأمور ؟!

وحقيقة أخرى وهى أن ابن قتيبة اطلع على إصلاح المنطق " على اعتبار السبق والمعاصرة ، التى دفعت أهل العلم إلى هذا التوهم ، فابن السكيت ، توفى عام (244هـ) وابن قتيبة توفى عام (276هـ) وبين هذا وذاك "32" عاما، ظل ابن قتيبة فيها باحثًا للعلوم على اختلاف مصادرها ومنابعها ، ورغم هذا الاطلاع لا نجزم بصحة ما

---

[1]– ابن السكيت ، إصلاح المنطق من : ص **183** : ص **185**.

[2]– د: رمضان عبد التواب ، لحن العامة : ص **162** وما بعدها.

ذهبوا إليه ، بل لا يمكن أن نقبل منه إلا ما تأكدنا منه ، إذ إن ابن قتيبة قد أورد فى كتابه بعضًا من العناوين التى استعملها ابن السكيت ، ولكنه لم يدرج تحتها ما أدرجه ابن السكيت رغم تقارب المنظور الذى أشارت إليه هذه العناوين.

ومما يؤيد صحة ما ذهبنا إليه ، أننا بعد أن اطلعنا على مقدمة " أدب الكاتب" يطالعنا عنوان فى كتاب المعرفة وهو "باب ما تضعه الناس فى غير موضعه" [1]وهو نفس العنوان فى " إصلاح المنطق" باب ما تضعه العامة فى غير موضعه " [2].

وبتناول هذين البابين عند كليهما ، وجدنا أن ابن قتيبة يرشد إلى جهة الطريق السليم ، متفردًا بذاتيته المصطبغة بالصبغة الخاصة المعتمدة على التحديد ، وهذا لا يؤخذ عليه ، إذ إنه من الطبيعى أن تتوارث العلوم ، فيستفيد اللاحقون من السابقين ، وهو فى هذا الباب لا يتناول مما أورده ابن السكيت إلا لفظتى : [المَلَّة] و [خرجنا نتنزه] وحين مقارنة ذلك ، نجد أنه قد اختلف عنه فى تناولهما.

يقول ابن قتيبة : و المَلَّة" يذهب الناس إلى أنها الخبزة ، فيقولون أطعمنا ملة ، وذلك غلط ، إنما الملة موضع الخبزة ، وسمى بذلك لحرارته ، ومنه قيل فلان يتململ على فراشه ، والأصل يَتَمَلَّل ،

---

[1]– ابن قتيبة ، أدب الكاتب : ص **17** : ص **36**.

[2]– ابن السكيت ، إصلاح المنطق من ص **284** : ص **287**.

فأبدل إحدى اللامين ميمًا ، يقال مَلَلْتُ الخبز فى النار أملها ملاً ، والصواب أن تقول أطعمنا خبز مَلَّة "[1] .

ويقول ابن السكيت : أكلنا ملة ، وإنما الملة الرماد الحار، قال الشاعر [2]:

لا أشتم الضيف إلا أن أقول له

أباتك اللهُ فى أبيات عمار

أباتك الله فى أبيات معتنز

عن المكارم لا عف ولا قار

جلد الندى زاهد فى كل مكرمة

كأنما ضيفه فى ملة النار

1– أدب الكاتب : ص 32 وما بعدها.

2– وردت هذه الأبيات فى إصلاح المنطق : ص 285.

وحين عقد مقارنة بين هذين العالمين فى استعمالهما للفظ " الملة " يتضح لنا ما يلى :-

اللفظ	تحليل ابن السكيت	تحليل ابن قتيبة
الملة	1- قال ابن السكيت : أكلنا ملة.	1- قال ابن قتيبة :الملة يذهب الناس إلى أنها الخبزة، فيقول:أطعمنا ملة
	2-الملة : الرماد الحار .	2- الملة : موضع الخبزة .
	3- لم يعلل السبب فى تسمية اللفظ بهذا الاسم.	3- علل لذلك قائلاً : سمى بذلك لحرارته.
	4- لم يشر إلى الأصل الاشتقاقى للفظ	4- أشار إلى أصله الاشتقاقى قائلاً: "ومنه قيل فلان يتململ على فراشه" .
	5- لم يلمح ولم يتنبه إلى الإبدال بين اللام والميم.	5- ألمح إلى إبدال اللام ميما قائلاً : والأصل يتملل، فأبدل من إحدى اللامين ميماً
	6- استدل على اللفظ ببيت من الشعر العربى.	6- لم يستدل.

وحين نمعن النظر فى هذه المقارنة بينهما للفظ " المَلَّة" نجد أن ابن السكيت عندما أورد لفظ " الملة " قال : أكلنا ملة " " وإنما الملة الرماد الحار " دون أن ينتبه على الصواب والخطأ فى استعمال العامة لها ، كما أنه لم يعلل السبب فى تسميتها مَلَّة ، بخلاف ابن قتيبة فإنه بعد أن أورد اللفظ ، نَبَّهَ إلى أن العامة – فى زمنه – كانوا يستعملونه استعمالاً خطأ فيقولون " أطعمنا ملة " ثم نَبَّهَ إلى صوابه قائلا : وذلك غلط : "إنما الملة موضع الخبزة" ولم يكتف بتصويبه فحسب ، لكنه ذكر السبب فى تسميته " ملة" قائلاً سمى بذلك لحرارته . هذا بالإضافة إلى أنه بَيَّن الأصل الاشتقاقى للفظ قائلا: ومنه قيل فلان يتململ على فراشه. كما أنه – بحسه المرهف وشفافيته– ألمح إلى إبدال اللام ميمًا فى اللفظ نفسه قائلا : والأصل " يتملل" فأبدل من إحدى اللامين ميمًا . وهذا يدلنا دلالة قاطعة على تذوقه لمخارج الحروف وصفاتها ودقة ذوقه اللغوى وحسه المرهف ودقة ملاحظاته ، وقدرته الفائقة على التحليل والاستنباط.

وبالرغم من كل ما قيل ودار فيه الخلاف ، فلابن قتيبة اليد الطولى فى مصنفه الذى أضفى عليه منطقية العالم، العارف ، المتبحر فى علوم اللغة ، المتمسك بالمنهج الانتقائى فى دراسته للغة – فمثلا – لو تأملنا بعض أبواب " إصلاح المنطق" مثل :

– باب فَعْل وفِعْل باختلاف المعنى مثل " الحَمْل والحِمْل"[1]

– باب فِعْل وفَعْل باتفاق معنى مثل " السِّلْم والسَّلْم " [2].

– باب فِعْل و فُعْل باختلاف معنى مثل " الكِيْر والكُوْر" [3].

نجد أن بن قتيبة قد أبرز دقة ملاحظاته ، وقدرته على إدراك الفروق اللغوية البسيطة والتصنيف المبنى على الحجة والتوضيح واستقصاء النظر ، وعنايته بالوجوه المختلفة فى ضبط بنية اللفظ ، والذى يرجع معظمه إلى اختلاف اللهجات العربية – وإن لم ينسبها إلى أصحابها – فيعقد بابًا ينتقى من تلك الأبواب السابقة ما يقع تحتها هذا ، فلو تأملت ودققت النظر لوجدت نماذجه المختارة من "إصلاح المنطق" أبسط من أن تكون محور اهتمام بالاقتباس، فقد عَنْوَنَ لبابه فى كتاب تقويم اللسان بقوله : "باب الحرفين يتقاربان فى اللفظ وفى المعنى ويلتبسان ، فربما وضع الناس أحدهما موضع الآخر" [4].

ومن ناحية أخرى ، نلحظ فى كتاب الأبنية ، بعد أن يستفيض فى شرح معانى "فعلت وأفعلت – مثلا – يعود إلى صيغة أفعلت ، ليعدد معانيها مرة ثانية " [5] ونحن نلتمس له ذلك لأنه – فى رأينا –

1– إصلاح المنطق من ص 3 : ص 30.
2– المصدر السابق من ص 30 : ص 32.
3– المصدر السابق من ص 32 : ص 36.
4– أدب الكاتب من ص 238 : ص 248.
5– أدب الكاتب من ص 342 : 348.

قصد إلى الجمع بين الجانبين المعجمى القائم على الحشد والجمع ، والتقعيدى القائم على التقنين ، فهو فى الموضع الأول اكتفى بسرد الأفعال على صيغة أفعل وسرد معانيها كذلك ، ثم عاد ليولى اهتمامه ببناء الكلمة ، فقصد إلى معنى بناء اللفظ.

وأيا ما كان الأمر فإن بحثه فى أبنية الأفعال والأسماء بحثًا علميًا، قائمًا على الاستقراء والتتبع ، وهو بذلك لم يهدف إلى محاولة حصر الأبنية فحسب ، فهذا أمرٌ قام به السابقون عليه ، ولكنه اهتم بذكر الأبنية التى تعدد ضبطها فحصرها ومَثَّلَ لها ، كما اهتم أيضًا بالأبنية النادرة فى كلام العرب ، والتى لم يأت على نظيرها إلا كلمة ، أو كلمتان ، أو ثلاث ، على نحو ما أورده – فيما نقله عن الأصمعى – وهو قوله : "ليس فى كلام العرب" فِعَلل " بكسر الفاء وفتح اللام ، إلا حرفان " دِرْهَم " و هِجْرَع" وهو الطويل المفرد فى الطول [1].

وهنا نلحظ أن بن قتيبة لم يكتف بإيراد اللفظة ووزنها ، لكنه راح يشرح لنا دلالتها قائلا : هِجْرَع" هو الطويل المفرد فى الطول. وإذا صَحَّ هذا الظن يكون لابن قتيبة قصب السبق فى التأليف المعجمى على حساب نظام الأبنية ، وإن مهد له هذا الطريق أبو عبيد القاسم بن سلام (ت223هـ) فى أبواب الغريب المصنف ، وسيبويه ، والمبرد ".

1– أدب الكاتب : ص **481**.

والمقياس الصوابى عند عالمنا ابن قتيبة هو تسجيل الألفاظ من أفواه الفصحاء من الأعراب ، وهو بهذا يُعَدُّ فى زمرة المتشددين من اللغويين الذين لا يقبلون إلا الفصيح ، ولا يتعاملون إلا بالأفصح من الألفاظ والتراكيب والجمل والعبارات، ويرفضون ما عداه ، ويعدونه لحنًا وخطأً وغلطًا وانحرافًا.

ومما يؤيد ذلك قوله : " فلان يتصدق " إذا أعطى " "وفلان يتصدق" إذا سأل ، وهذا غلط ، والصواب "فلان يسأل" وإنما المتصدق المعطى" [1] قال الله تعالى: {وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} (2).

ومن ذلك قوله : "ليس فى الكلام " فُعلى "إلا بالألف واللام ، أو بالإضافة ، نحو "الصغرى" و "الكبرى" ولا تقل هذه امرأة صغرى ، كما لا تقول : "هذا رجل أصغر" حتى تقول "أصغر منك" وتقول "هذه الصغرى ، وهذا الأصغر"[3].

وعلى الطرف الآخر ، يقيس ابن قتيبة على ما جاء شاذًا أو نادرًا، مما دفع البطليوسى إلى لومه على هذا الصنيع ، لأنه جعل أشياء من لحن العامة ، وعَوَّلَ فى ذلك على ما رواه أبو حاتم عن

[1]– أدب الكاتب : ص 21 وما بعدها.

[2]– سورة يوسف : آية 88.

[3]– أدب الكاتب : ص 480.

الأصمعى ، وأجازها غير الأصمعى من اللغويين كابن الأعرابى ، وأبى عمر الشيبانى ... [1].

ونحن نرى أن هذا لا يؤخذ عليه ، لأن علماءنا القدامى أجازوا القياس ، يقول العلامة ابن جنى "فالناطق على قياس لغات العرب مصيب غير مخطئ ، وإن كان غير ما جاء به خيراً منه"[2] ومن أمثلة القياس على النادر عند ابن قتيبة قوله : " أهل الحجاز يقولون : " القُصوى" بالواو ، والقياس " القُصْيَا " بالياء مثل العليا ، وهو من علوت ، والدنيا من دنوت ، وهذا نادر خرج على الأصل"[3] .

1– البطليوسى ، الاقتضاب فى شرح أدب الكُتَّاب : ج1 ص 20.

2– ابن جنى ، الخصائص : ج2 ص 14 .

3– أدب الكتاب : ص 488.

الخاتمة

وبعد... فلقد كان مفيدا بعد أن حاولنا بعون الله وتوفيقه إنجاز هذا البحث أن نستخلص النتائج الآتية:

1- يعد ابن قتيبة من العلماء الذين أثروا الفكر الإنساني بالعديد من المؤلفات النفيسة في مختلف علوم اللغة والنحو والحديث والتفسير والفقه والشعر، كلها تهدف إلي التعليم والإفادة ، فقد استهدف تعليم الجهال ممن يدعون العلم ، وكشف المتطاولين على القيم الدينية ، وهم أجهل الناس بمكانتها.

2- أتقن ابن قتيبة ثقافة العصر الذي عاش فيه ، والمعارف المحيطة به من عربية وفارسية ويونانية وهندية ونبطية ، فاكتسبت تلك العقلية المنظمة التي جعلت كتبه ومؤلفاته تتسم بالاتزان .

3- يعد ابن قتيبة أول من جمع بين مذهبي الكوفة والبصرة في النحو والصرف ، ولا يقوم بهذا العمل إلا من اتقن المذهبين
وعرف الأصول التي تبني عليها العلل والمقاييس عند المدرستين.

4- قدم ابن قتيبة الأدب الرفيع متمثلا في روائع الشعر وبليغ النثر بما يمكن أن نقول إنه صورة حية للحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية والثقافية آنذاك ، ومن ثم عكس لنا أن قتيبة ثقافية عصره عن طريق تأثر الثقافة العربية بغيرها من الثقافات، وهو في كل هذا ينير الطريق أمام المتأدب ليروض نفسه على الأخذ بما فيها من سنة حسنة وسيرة قويمة وأدب كريم وخلق عظيم .

5- عالج ابن قتيبة في كتابه أدب الكاتب داء قد استشري في لغة العرب هو داء اللحن والخطأ في الكلام، والذي يرجع إلي اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخري فنتج عن ذلك الاختلاط أن كثر اللحن وشاع الخطأ وتسربت العجمة .

4- أن الأمر ليس أمر أبيات في قصيدة ، ولا هو أمر القصيدة نفسها ، وإنما هو أمر ارتعاشة الشاعر في اللحظة الحاسمة ، لحظة نورانية الخالق عندما يقف محلقا في سمائه الشعرية مبدلا حاجته الراهنة بحقائق جوهرية.

5- اتهم البعض ابن قتيبة في كتابه أدب الكاتب بالاقتباس من ابن السكيت في كتابه إصلاح المنطق ، ولكنك . بقليل من النظر . تلحظ أن نماذجه المختارة من إصلاح المنطق أبسط ما يكون من أن تكون محور اتهام بالاقتباس، لأن ابن قتيبة له اليد الطولي في معالجة العديد من الموضوعات التي أوردها ابن السكيت في ثنايا مؤلفه إصلاح المنطق، أضفي عليها ابن قتيبة منطقية العالم العارف المتبحر في علوم اللغة، المتمسك بالمنهج الانتقائي وذلك من خلال دقة ملاحظاته، وقدرته علي إدراك الفروق اللغوية البسيطة ، والتصنيف المبني على التقنين.

المصادر والمراجع

1- ابـن الأثيـر، الكامـل فــى التــاريخ ، دار صــادر بيــروت، ط 1385هـ = 1965م.

2- إسـحاق موسـى الحسـينى "دكتـور" ، حيـاة ابـن قتيبـة وأعمالـه ، ترجمــه إلــى العربيــة هاشــم يــاغى، بيــروت، ط 1400هـ = 1980م

3- الإشـبيلى ، فهرسـت مـارواه عن شيوخه ، نشره : زيـدين طرقوه، ط2 مطبعة طومس، سرقسطة 1393 هـ .

4- ابن الأنبـارى ، نزهـة الألبـاء فـى طبقـات الأدبـاء ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة المدنى ، القاهرة ، د.ت.

5- البطليوســى ، الاقتضــاب فــى شــرح أدب الكتــاب ، تحقيــق مصـطفى السـقا و د: حامـد عبـد المجيـد ، الهيئـة المصـرية العامة للكتاب ، ج1 ، ط 1981م، ج2 ، ج3 ط 1982م.

6- البغدادى ، تاريخ بغداد ، مطبعة الخانجى بالقاهرة ، ط 1931

7- ابـن تيميـة ، تفسـير سـورة الإخـلاص ، دارالطباعـة المحمديـة ، القاهرة ، د.ت.

8- ابـن جنـى ، الخصـائص ، تحقيـق محمـد علـى النجـار ، الهيئـة المصرية العامة للكتاب ، ط3 ، 1407 هـ = 1985م.

9- الجـواليقى ، شـرح أدب الكاتـب ، ، تقـديم مصـطفى صـادق الرافعى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، د.ت.

10- حـاجى خليفـة ، كشـف الظنـون عـن أسـامى الكتـب والفنـون ، مطبعة البهية ، تركيا ط 1941م.

11- ابن خلدون ، المقدمة ، مطبعة دار الشعب، القاهرة ، د.ت.

12- ابـن خلكـان، وفيـات الأعيـان وأنبـاء أبنـاء الزمـان ، تحقيـق د: إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط 1970م

13- الداوودى ،طبقات المفسرين ، تحقيق على محمد عمر ، القاهرة مطبعة الاستقلال الكبرى ، الطبعة الأولى 1393 – 1973م.

14- الذهبى، تذكرة الحفاظ ،حيدر آباد الدكن ، الهند ، ط 1323هـ

15- رمضـان عبـد التـواب "دكتـور" لحـن العامـة والتطـور اللغـوى القاهرة ، طبعة 1967م

16- ابـن السـكيت ، إصـلاح المنطـق ، تحقيـق "أحمـد محمـد شـاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، ط4 ، 1949م

17- السـمعانى ، الأنسـاب ، تحقيـق الشـيخ عبـد الـرحمن بـن يحيـى المعلمى ، طبعة حجرية ، ليدن ، ط 1912م.

18- السيوطى ، بغية الوعاة فى طبقات اللغوين والنحاة تحقيق محمد أبـو الفضـل إبـراهيم ، ط1 ، مطبعـة عيسـى البـابى الحلبـى وشركاه ، القاهرة 1383 هـ = 1964م.

19- السيوطى ،المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم وآخرين مكتبة دار التراث ، القاهرة ط3،د.ت

20- الطاهر مكى "دكتور" دراسة فى مصادر الأدب ،القاهرة ، دار المعارف، 1977م.

21- الطهطاوى ،مراتب النحويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة 1974م

22- عبد الحميد سند الجندى "دكتور" ابن قتيبة العالم الناقد الأديب، سلسلة أعلام العرب (22) المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت

23- العسقلانى ، لسان الميزان ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ط10، 1330 هـ

24- ابن قاضى شهبة ، طبقات النحاة ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

25- ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، تحقيق وشرح محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، دار الجيل، بيروت ، ط4، 1382 هـ = 1963م

26- ابن قتيبة ، الأنواء ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ، الهند ط1 ، 1956 – 1975

27- ابن قتيبة ، تأويل مختلف الحديث ، تحقيق محمد زهرى ، المكتبة التجارية ، دار الجيل ، بيروت ، ط 1973م

28- ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1401 هـ = 1981م

29- ابن قتيبة ، تلقين المتعلم من النحو ، تحقيق د: جمال عبد العاطى مخيمر ، مطبعة وهبة حسان ، بالقاهرة ، ط1 ، 1409 هـ= 1981م.

30- ابن قتيبة ، الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، مطبوع ضمن منشورات مكتبة المقديسى بالقاهرة، د.ت.

31- ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، ط 1950م ، 1386هـ = 1966م

32- ابن قتيبة ،غريب الحديث ، تحقيق د:عبدالله الجبورى ، العراق، وزراة الأوقاف ، مطبعة العانى، ط 1397م = 1977

33- ابن قتيبة ،غريب القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، مطبعة دار الكتب العربية ، بيروت ، ط 1398 هـ = 1978م

34- ابن قتيبة ، المسائل والأجوبة فى الحديث واللغة ، مكتبة المقديسى بالقاهرة ، ط 1949م

35- ابن قتيبة ، المعانى الكبير ، مراجعة د: كرنكو ، حيدر آباد الدكن، الهند ، ط 1368 هـ

36- ابن قتيبة ، الميسر والقداح ، تحقيق محب الدين الخطيب ط 1343هـ

37- القفطى ، إنباه الرواة على أبناء النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط1 ، 1950م – 1973م

38- كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ترجمة د : عبد الحميد النجار ، دار المعارف ، د.ت

39- ابن كثير ، البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، د.ت.

40- ابن منظور ، لسان العرب ، طبعة بولاق ، 1300هـ-1307 هـ

41- ابن النديم ، الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت

42- اليافعى ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، منشورات الأعلمى للمطبوعات، بيروت ، ط2 1390هـ = 1970

43- ياقوت الحموى ، معجم الأدباء ، دار صادر بيروت ، د.ت

- **المجالات والدوريات العلمية**

- مجلة المورد البغدادى ، العدد الرابع ، سنة 1974م

الفهرس